الرسالة المخلصية

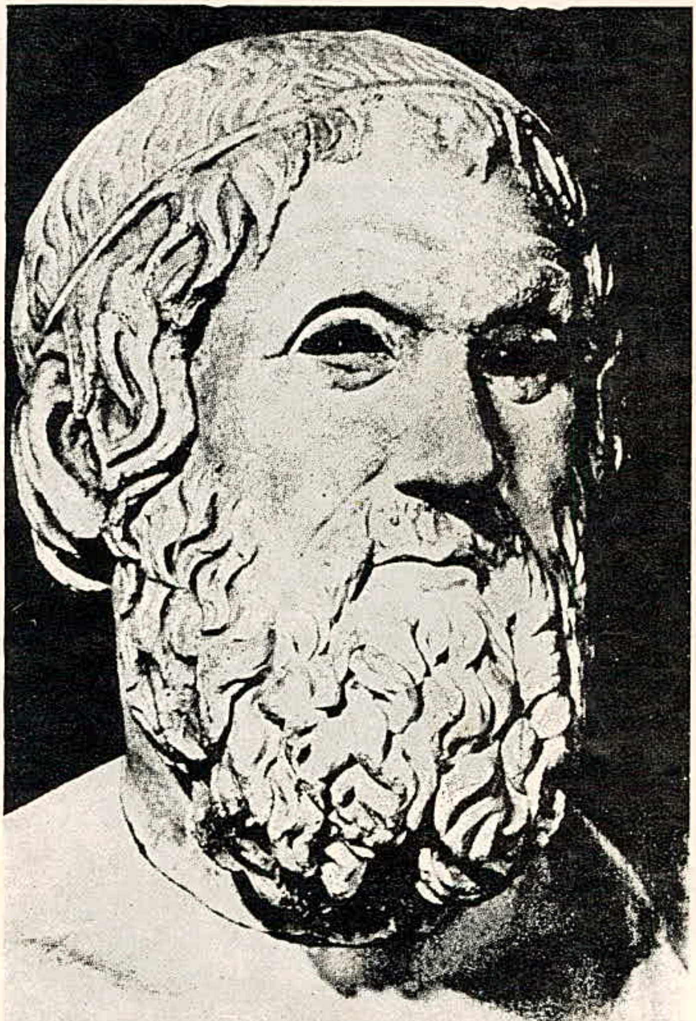

سوفوكل في قلعة صيدا

العدد ٦ ـ ٧ — السنة الثالثة والثلاثون — حزيران ـ تموز

١٩٦٦

السنة ٣٣ — الرسالة المخلصية — حزيران – تموز
١٩٦٦ — تصدر عن دير المخلص
قرب صيدا – لبنان — العددان ٦ و٧

لبنان بين ديموقراطية الحاكم والمواطن

✻

بقلم

الاب بشاره صارجي ب.م

يعتز اللبنانيون كل مرة تتناول الصحف العالمية وطنهم في مقالاتها. فهي مرة ترسم لوحات غنية عن ازدهاره ونموه، واخرى تشيد بالمبادلات المالية التي تتم في مصارفه. ويتباهى اللبنانيون بالحنكة التقليدية التي صانت هذا البلد من الثورات المسلحة حافظة اياه وحيداً، من الشرق الاقصى الى المتـــوسط، في ديموقراطيتيه الفريدة. ومما لا شك فيه ان الحركة المالية في لبنان جعلته يتبوأ اولى الرتب بين دول العالم في الدخل الفردي، بنوع ان الولايات المتحدة تمتنع عن اعتباره بين الدول النامية المحتاجة الى مساعدات مالية خاصة.

ولعل الخطر كله كامن في تقديرات مخطئة قد يذهب ضحيتها لبنان كله. ففي هذا البلد الازدهار والى جانب الازدهار الفقر وبعض المرار البؤس. وفي لبنان الصفقات

المالية المدوخة والبذخ ، والى جانب المال المبذرق الجهد البائس للحصول عليه . وفي لبنان آخر معقل للديموقراطية الحرة في الشرق والى جانب الديموقراطية الاستعباد المالي والاقطاعي . واذا كان من دواعي الاعتزاز ان يأخذنا الغير بعين كبيرة مفرطين في تعداد مزايا هذا الوطن وما بلغ اليه من مراحل الازدهار والرقي ، فانه لمن دواعي الفطنة ايضاً ان لا يعمي الغرور القيمين على مقدرات هذا البلد ومحبيه . واذا ما درج على ألسنة الناس ان لبنان هو بلد التناقضات ، فمن الضروري لكل من يشاء لهذا البلد استمراراً في الازدهار والبحبوحة والديموقراطية ان يتطلع بعين قلقة الى التخلف والفقر والمسكنة ، والا من يدري ما يخبىء الغد لهذه الواحة من رياح الاعاصير .

ومن غريب الصدف ان العدالة الاجتماعية كتبت في اكثر الدول النامية على رؤوس الرماح . ولكم من بلد في العالم الفسيح ، وفي شرقنا القريب ، ظن ان سيف الاسكندر هو افضل سبيل لحل عقدة غورديوس . ولكن لبنان ما زال حتى يومنا يفضل على سرعة السيف امانة العقل ، انه مثل اي بلد ينشد العدالة الاجتماعية ، ويختلف عن الكثير غيره من البلدان في نهج العدالة . واذا ما كان للعقل ميزات لا يعلو عليها قوة في هذا الكون ، فله ايضاً عيوب قد تودي بـــه وبالآخذين بقواعده . والجدل البيزنطي ما زال حتى يومنا مضرب مثل لغباوة العقل وتغلب القوة العمياء عليه .

وطريق العدالة الاجتماعية في لبنان بدت ، وقد طال الحديث عنها وفشل البلوغ اليها ، ممتنعة المسلك . يرسم الحكام والمسؤولون خطوطها باقلام مغمسة في ماء الفضة والذهب ، ويترنح لدغدغات مكاسبها المحرومون المجاهدون .

ومع ذلك ما برحت حتى يومنا ضرباً من المستحيل على ابناء هذا الجيل ، حتى راح البعض يتساءلون ، اتراها افيوناً يستخدمه الحكام في سبيل تخدير المواطنين ، ام انها مقصد يفوق قدرة القيمين على ادارة هذا البلد . فمنذ عهد بعيد ما برحت البيانات الوزارية تنشد العزم على تحقيق عدالة اجتماعية توفر توزيعاً عادلاً لثروات البلد على كل المواطنين ، ثم تنطوي الايام وتدول الوزارات ، وتتردد الاقوال ان لا حل لمشكلة الوطن الا في العدالة الاجتماعية وتوفير الخدمات الضرورية للمواطنين ، كي لا يشعروا بمركب نقص كل مرة تنزل بهم مصيبة او تفجعهم فاجعة .

ولا شك ان للبطء في العمل اسباباً ، ولكن الذي يتلوع تحت ضربات العوز غير الذي يتأمل فلسفياً ونظرياً بموجبات العدالة . والمثل المأثور يقول : « ان الجمرة لا تكوي الا في موضعها » . من هنا الفرق بين الحكام والمواطنين ، وبنوع خاص المعوزين منهم ، في تقدير الحاجة الى العدالة والى توفير الخدمات الاجتماعية توفيراً لائقاً . فالحكام ينشدون العدالة كبرنامج عمل يدعم لهم زعامتهم ، بينما المواطنون يطالبون باشباع حاجات ضرورية ماسة ، فالمريض لا يستطيع التريث ، والعاطل عن العمل لا يستطيع فتح اعتماد على امل عمل قد توفره له الدولة في المستقبل . بينما هذا الحاكم او ذاك يستطيع ان ينام على مشروع اجتماعي لينصرف الى دعم زعامة وصيانة كرسي من هجمات خصم سياسي .

وقد يبالغ البعض في تقدير صلاح المواطنين ونفسيتهم الطيبة ، كما انه يخطىء كل الخطأ من يظن ان العاطفة الدينية تحول دون تذمر المؤمنين وطموحهم الى اوضاع حياتية واجتماعية اكثر لياقة . وقواعد الحياة العصرية لم

تعد لغزاً مقفلاً على اي انسان . فاذا ما كان من اسس العمل الديموقراطي البطء والتروي ، فان الشعارات الثورية تشق طريقها الى القلوب بسرعة البرق . ان تطوير اوضاع الشعوب يقتضي وقتاً طويلاً ، ولكن تطوير تطلبات الشعوب لا يقتضي اكثر من صوت اذاعي او خبر صحفي . ولعل الاغراء الاكبر الذي تذهب ضحيته شعوب كثيرة هو اعتقادها بان قلب الاوضاع وتطويرها يتم بالسرعة عينها التي تتبدل فيها العواطف والشعارات . من هنا كثرة الثورات وجمع الصفوف حول الداعين اليها . ومن هنا الخطر المستمر على الديموقراطيات القائمة ، خصوصاً اذا ما غلب عليها بطء في العمل وكسل في المبادرة الفعالة .

يجتاز لبنان اكثر مراحله صعوبة وخطراً . فالشباب طالب العمل يزداد يوماً عن يوم ، والعاملون لا يلاقون الاجر اللائق لحياة كريمة . ولذا كثرت الهجرة بين الذين فقدوا الامل في حياة فضلى في وطنهم ، وعظمت النقمة بين الباقين الذين طالتهم بعض الدعوات الثورية . بقي على الذين ينشدون الديموقراطية في هذا البلد ان يبرهنوا ان الديموقراطية هي اكثر من كرسي يريدون الحفاظ عليه او مكسب يبذلون جهدهم كله في سبيل صونه .

ان الديموقراطية هي توزيع عادل لخيرات الوطن على كل ابنائه .

شريعة الحب وشريعة الزواج

بقلم

ميخائيل ضوميط

مطران صربا

١ ـ اهمية قضية العيلة

ان المجمع الفاتيكاني الثاني الذي توخى أن يضع تعليم الانجيل في متناول أبناء هذا الزمان وان ينظر على نوره في المشاكل التي نجمت عن ظروف العصر تيسيراً لحلها حلاً يتفق ومقتضيات تعليم المسيح ، لم يكن بوسعه ان يغضي عن قضايا العيلة وهي من قضايا العصر في ابرز مقام ومن قضايا الانسان في الركن والاساس .

ان العيلة هي حجر الزاوية في مصير الانسان دنيا وآخرة . وان كان بين الناس من دعوا الى عيشة التبتل فمما لا شك فيه ان الدعوة الى التبتل ليست دعوة العامة ، ويبقى ان حالة الزواج هي حالة الاكثرية من الناس ، وان هذه الاكثرية قد كتب لها ان تهنأ او تشقى وان تسعد او تهلك عن طريق العيلة . واذا كان الناس ، عامة الناس ، يأكلون خبزهم بعرق جبينهم ، ويسيرون بحكم الطبيعة على سُنَّة العمل ، فيتمكن بعضهم من جمع ثروات طائلة ويبقى كثيرون في قبضة الحاجة والعوز . واذا كان اليسر والعسر عنصراً من عناصر الهناء والشقاء ، فانه من الثابت ان

كل مال الدنيا لا يروي غليلًا ولا ينجي من هلاك ، كما انه من الثابت ان الفقر مهما ثقلت وطأته ليس قضاء حتماً بالشقاء والهلاك . اساس الهناء هو في العيلة ، وفيها اهم دواعي الشقاء ، والحب الذي يدفع الى تأسيس العيلة ، وفيه يتلخص شوق الانسان الى السعادة ، هو اعمق جذور في الطبع من الجوع عينه .

فالحب والزواج والعيلة هي اذن من صميم كيان الانسان ومن صميم حياته ، كل خلل فيها تشمل أضراره الفرد والمجتمع ، وكل توفيق فيها يجني ثمره الفرد والمجتمع ، وما من احد يستطيع ان يقف منها موقف لامبالاة لان خيرها وشرها لا يقتصر على فردٍ او جماعة دون سواهما بل يتعداهما الى غيرهما . وهكذا فلا الفتى او الفتاة يمكنهما ان يعرضا عنها لانها تشكل في مطلع تمرسهما بالمسؤولية قضية مستقبل وقضية مصير ، ولا الوالدان يمكنهما ان يتنصلا منها لانهما لا ينتهيان من حلها في شخصيهما حتى تبرز من جديد في اولادهما ، ولا الكاهن ولا الطبيب يمكنهما ان يتنكرا لها وهي تعترضهما في كل عمل من اعمالهما يتعدى السطحيات ، ولا الكنيسة ولا الدولة يجوز لهما ان يهملاها لانها خير موطن للازمات : من أزمات الضمير الى الازمات الاخلاقية والاجتماعية على اختلافها .

٢ — الحب والزواج في مجتمع اليوم

وان نحن نظرنا الى حالة الحب والزواج والعيلة في مجتمع اليوم نجدها في رأس معضلاته الجوهرية : فأزمات الضمير على تكاثر واشتداد من جراء الخلافات والمصاعب التي تعكر صفو حياة الزوجين ، سواء من ناحية الامانة الزوجية او من ناحية ايلاد البنين ، والازمات الاخلاقية على انتشار وتأصل من جراء حرية التصرف بين الجنسين وارتخاء قيود الحشمة والمتاجرة بالعري والطمع

في التملي من لذائذ الحياة وتجاربها ، والازمات الاجتماعية ليست اقل شيوعاً ، فالطلاق اصبح شرعاً في كثير من البلدان ، ووسائل منع الحبل والاجهاض اصبحت بضاعة رائجة ، وتكاثر السكان اصبح مشكلة تشغل بال كثير من الحكام ، وقد اخذوا يتداركونها بوسائل لا يقرها وجدان ولا ضمير . وعلى وجه الاجمال اصبحت المناقبية العائلية في تقهقر وانحطاط .

ولم يفت المجتمع هذا الواقع المرير فلاحظ بقلق « ان كرامة المؤسسة الزواجية لا تتجلى بالبهاء عينه في كل مكان ، فتعدد الزوجات وبلية الطلاق والحب الذي يسمونه حراً وما سوى ذلك من الشواذات يشوهها ، والانانية والسعي الى اللذة ووسائل منع الايلاد المحرمة غالباً ما تدنس الحب الزوجي . وظروف اليوم ، الاقتصادية والاجتماعية ، النفسية والمدنية ، تحدث في العيلة اضطرابات ليست باليسيرة ، وأخيراً المعضلات الناجمة عن تكاثف عدد السكان توقظ الاهتمام . وهذه الامور جميعها تقلق الضمائر ... » (الكنيسة في عالم اليوم عدد ٤٧) .

على ان واقع اليوم لا يخلو من معالم ثقة ورجاء . ففي عيال اليوم على وجه الاجمال لم تبقَ المرأة اداة متعة او اماً للولد فقط بل اصبحت شريكة حياة تقاسم زوجها الهم والرأي والمسؤولية ، والكد والتعب والحزن والفرح . والايلاد لم يبقَ مجرد استجابة لداعي الغريزة بل اصبح عملاً واعياً مسؤولاً . والحياة الزواجية ، مع بقائها انصياعاً لسنّة الطبيعة ، أصبحت واقعاً انسانياً مادياً وروحياً معاً ، له فعله في تكوين الشخصية وتنمية الصفات الانسانية وتحصيل الفضيلة وتقرير المصير . وان الحياة الزواجية لتبلغ اليوم في بعض الاحيان قمة من قمم النضج الروحي تجعلها ، في حياة المتزوجين ، مرقاة للكمال ، على طريق الانسانية والقداسة .

٣ – بين امس واليوم

وان نحن حاولنا ان نقابل بين واقع الحب والزواج والعيلة اليوم وما كان الامر عليه بالامس ، مقابلة لا تقتصر على النظر السطحي والاحصاء ، لوجدنا ان الفرق الاكبر يقوم في الوعي الذي بلغ اليه الانسان المعاصر في ادراك مرامي الحياة والقدرة على التصرف بقواها . وليس معنى ذلك ان الانسان كان فيما مضى اقرب الى الفضيلة وانزه عن اللذة ، فتعدد الزوجات ارث عتيق ، والطلاق ليس بدعة حديثة ، وما رواه المؤرخون عن فنون المجون في العصور القديمة لم يكن أقل ايغالاً في الشهوة مما نسمعه اليوم . ان سطوة الشهوة على البشر هي هي ، وان كانت قد ظلت فيما مضى محصورة في بيئات تيسر لها البذخ والاستهتار ، لانه لم يكن في تلك الايام مجلات مصورة تطلع على الناس في مطلع كل اسبوع ولا جرائد تغزو البيوت صباح كل يوم ، ولا قاعات سينما تعج بالناس اكثر من مرة في اليوم ودأبها ان تدغدغ حواسهم وتخدر بصائرهم وتسلب ما في جيوبهم . على انه لا بد من الاعتراف بان الانسان كان فيما مضى ، على ما يبدو ، اقرب الى الطبع ، واطوع للغريزة ، وقربه الى الطبع كان يشده الى التراب لكنه في الوقت عينه كان يحميه من دهاء العقل وخبثه .

اما اليوم فالانسان المعاصر أوعى لاغوار طبعه ، واقدر على التصرف بازمته ، وهو اقدر على استيعاب معنى الحب في عمقه وسموه ، واقدر على سبر غوره السحيق كما انه اقدر على التفنن في استغلال الغريزة لابتداع الوان من اللذة تحمي شهوته من الكلل . ولعله اصبح اكثر تقديراً لمسؤوليته ، واقل استسلاماً لعفويته ، واكثر تعقيداً واشد اغتباطاً واسى . ولعله قد غدا ، بحكم تقدمه في الوعي والقدرة ، ارفع عن العجمة واقرب الى الانسانية ، وبحكم هذا الوعي لم يبق له مناص من ان يقف

موقفاً صريحاً من دعوته الاصيلة ، فاما ان يكون ملاكاً سماوياً واما ان يكون شيطاناً رجيماً ومن هنا شرفه وكرامته وعبؤه ومسؤوليته .

قد يتأسف بعضهم على ايام العفة الغابرة وعهود الفضيلة المفقودة ، كما قد يعتز بعضهم بما تحقق للوعي الانساني من كسب على العفوية البلهاء ، ولو بريئة . والحق ان المرء يسأل على قدر ما يعي ، وان التطور يعرض للخطر ويفتح مجالاً في الوقت عينه للنمو في الانسانية . ومن واجب المرء ان يكون في مستوى زمانه وظروفه ، وليس في الندب والشكوى خير ولا فائدة .

٤ – شريعة الحب وشريعة الزواج

اما وعي الانسان اغوار طبعه فليس مما يبعده حكماً عن سبيل كماله بل على العكس مما يمهد له ولوج هذه السبل . وفي الباب الذي نحن فيه ، ان ادراك الانسان معنى الحب وحرصه عليه ليس بحد ذاته خطراً على العيلة بل على العكس باباً الى ترسيخ اصولها ، وتوطيد دعائمها . وقد اشار المجمع الى هذا الامر اشارة واضحة عندما قال : « ان الشريعة الالهية تظهر معنى الحب الزوجي بتمامه وتحميه وتسمو به الى كماله الانساني » (الكنيسة في عالم اليوم عدد ٥٠) . ومعنى قول المجمع ان الحب الصحيح ، الذي يملأ فراغ القلوب ، لا يستقيم الا ضمن حدود شريعة الزواج المسيحية ، وعليه فلا خوف على هذه الشريعة من سطوة الحب ، ما دام سليماً ، بل الخوف على الحب وعلى الانسان معاً من طغيان الشهوة ، التي تمسخ الحب وتشوهه ، وتقصره على لذة الحس ، والخوف كل الخوف على الحب الانساني ان هو لم يضبط ضمن حدود الشريعة ، ولم يهذب وفقاً لمقاصدها ، لانه اذ ذاك ينحدر عن مستواه الانساني

الى مستوى الشهوة البهيمي ، ان شريعة الحب وشريعة الزواج لا يتنافيان ، وشريعة الزواج ان هي الا التعبير الاجتماعي السليم عن مقتضيات الحب الصحيح .

وفي الموجة الغامرة التي تجرف الشبان والفتيات من ابناء زماننا في تيار الحب ، وتدفعهم الى السير على دروبه ، ليس الهلاك في التعرض للحب ولا السلامة في تجنبه او كبته ، بل الهلاك في زيغانه عن صراطه المستقيم وضلالة قبلته . والفلوات لا يحسن سلوك مشاعبها غير العارفين ، والهالك من ضل مشعب الحق . ومشعب الحق ، او الحب الصحيح ليس لذة او متعة عابرة ، وارواء لغليل حس ، وزهراً بلا ثمر ، انه لقاء ، على مستوى الانسان ، بين شخصين ، ترتوي فيه الروح التواقة الى الالفة ، من خلال ما تستشعره في صفات الحبيب الخَلقية والخُلقية ، من تجاوب وتلبية . وكل حب لا يرتقي الى هذا المستوى ليس بالحب الانساني ، وكل حب يشوبه تحفظ ، كأن يقتصر على التمتع بالجمال او على التلذذ بالمعاطاة العاطفية او الجنسية دون الرضى بالتجاوب الروحي وبثمرة الحب ، التي تنزهه عن الانانية وتجعله سخاء وبذلاً لا قبضاً ومضغاً ، هو رياء في الحب ونفاق . الحب الصحيح يقتضي بذلاً ليس فيه حساب ، لا حساب عد وحد ولا حساب قرض واسترداد ، انه عطاء مجاني في سبيل اسعاد الحبيب والسمو به الى أرفع المنى . ومتى لاقى هذا الحب مبادلة ، تم التجاوب وتمت السعادة . ان شريعة الحب عينها تفرض على الحبيب ان يظل أميناً لحبيبه وان لا يرضى عنه بديلاً ، وتفرض على الحبيبين معاً ، فيما ينعمان بالوان الحب وطيوبه ، ان يزرعا بذوره ويرعيا ثماره ويجنيا غلته ، ذخيرة ثمينة من ثمار الفردوس .

وعلى هذا النهج يبدو ما في الخروج على شريعة الزواج من طعن في الحب ومسخ له . ففي تعدد الزوجات امتهان لكرامة المرأة لانها لا تبقى رفيقة عمر او شريكة حياة بل تصبح لعبة

من لعب الرجل او آلة لولادة بنيه او خادمة في بيته . وفي الطلاق رجوع عن قصد كان في الاصل الى غير رجعة ، ورفض لعطاء كان بلا حساب ، وفي الخيانة الزوجية شرك يتنافى والاخلاص في الحب وليس أدل على فظاعته من غضب الله على المشركين .

ومن وجهة النظر عينها يبدو ما في سوء استعمال الحب وسوء استعمال الزواج من عهر وفجور . فكل استرسال في مظاهر الحب دون الرضى به عهداً دائماً رياء ونفاق ، لانه تمتع باللذة على مستوى الحس ورفض لما تعني على مستوى الشخص . وكذلك كل استعمال للزواج مع رفض الاولاد رياء ونفاق ، لانه تمتع بلذة الحس وانقباض عن عطاء القلب وتعكير لينابيع الحياة .

٥ - تعليم المجمع الفاتيكاني

وفي هذا الصدد جاء تعليم المجمع جلياً نيراً :

« ان المودة الزوجية لتجد في العمل الزوجي تعبيراً عنها وتتميماً لها فريداً ، ومن هنا ان الافعال التي يتحد بها الزوجان اتحاداً حميماً عفيفاً هي صالحة شريفة وتعبر ، ان تمت على نحو انساني حقاً ، عن عطائهما المتبادل وتذكيه ، وبهذا العطاء يغني احدهما الآخر بفرح واغتباط . وهذا الحب ، الممهور بالثقة المتبادلة والمكرس تكريساً خاصاً بسر المسيح ، لهو امين امانة لا تنفصم ، لا روحاً ولا جسداً ، في السراء والضراء ، واسمى من ان يتطرق اليه زنى او طلاق . وان وحدة الزواج لتظهر بجلاء في الكرامة الشخصية التي ينبغي الاعتراف بها للرجل والمرأة على السواء في المحبة المتبادلة الكاملة ... » (الكنيسة في عالم اليوم عدد ٤٩) . وفي موقع آخر جاء في باب العلاقات الزوجية ما نصه : « ان الله رب الحياة قد وكل الى الناس وظيفة سامية ألا وهي حفظ الحياة . وهذه الوظيفة ينبغي القيام بها على نحو يليق بالانسان

فالحياة يجب الحفاظ عليها منذ الحبل . والاجهاض وقتل الاولاد جرائم منكرة . والميزة الجنسية في البشر ، وقوة الايلاد البشرية ، تفوق بنوع عجيب ما يوجد في درجات الحياة الدنيا . وبالتالي فالافعال الخاصة بالحياة الزوجية ، المرتبة وفقاً لكرامة الانسان الاصيلة ، ينبغي احاطتها باحترام كثير . أما الحكم من الناحية الادبية على التصرف الزوجي حيث ينبغي التوفيق بين الحب الزوجي ، والايلاد المسؤول ، فلا يتوقف فقط على صفاء النية وتقدير الدوافع بل يجب ان يقرر بالاستناد الى مقاييس موضوعية مقتبسة من طبيعة الشخص وأعماله ، يستقيم فيها معنى العطاء المتبادل والايلاد البشري على تمامه في جو الحب الصحيح ، الامر الذي لا يحصل الا مع احترام فضيلة العفة الزوجية باخلاص . ولا يجوز لابناء الكنيسة الذين يعتمدون هذه المبادىء ان يلجوا في تنظيم الايلاد سبلاً تقرها الكنيسة عندما تفسر بسلطانها التعليمي الشرع الالهي » (الكنيسة في عالم اليوم عدد ٥١) .

هذا نص المجمع بحرفه ، ولا بد له من بعض التفسير نظراً لاهميته ، وان كان بذاته واضحاً .

واول ما يستخلص منه ان العلاقات الزوجية ، التي سبق المجمع وقال عنها انها « تعبير عن الحب وتتميم له فريد » هي في الوقت عينه تعبير عن الحب لهناء الشخص وقيام بوظيفة سامية لبقاء النسل . وهذان الوجهان للعلاقات الزوجية ، اي التعبير عن الحب والايلاد ، غير قابلين الفصل بارادة بشر ، تمنع بتدخل مصطنع سير العمل الانساني لحرمانه ثمرته . ان ينابيع الحياة مقدسة ، وكل تعد عليها قاهر ، لتعكير صفوها او تغيير مجراها ، هو خرق لاقداس الحياة وخروج على الخالق . وقد يأتي هذا الخرق من نية الفاعل فيما اذا كان قصده الاوحد قطف الزهر دون الثمر على كل حال ، كما انه يأتي من فعل الفاعل فيما اذا تعدى بفعل مصطنع على جري العمل بتكوينه الطبيعي ، تعدياً مرافقاً للعمل او لاحقاً

به ، ولا بد من القول فيما اعتقد ، او سابقاً له . ومن هنا ان الاجهاض وقتل الجنين جريمة نكراء ، وان وسائل منع الحبل بشتى انواعها عبث بقدسية الحياة وتدنيس لها . ولا يبرر هذا العبث او يعذره ان لا يهدف القائم به من خلاله الا الارتواء من لذة الحب – التي هي ضمن الزواج مشروعة بناءة – والى تجنب ما لا قبل له بتحمله من نتائج الحب ، لان الحكم في التصرف الزوجي من الناحية الادبية لا يتوقف فقط على « صفاء النية وتقدير الدوافع » بل يجب ان يقرر بالاستناد « الى المقاييس الموضوعية » المستمدة من كرامة الانسان والمجسمة في سير العمل الطبيعي اللائق بالانسان . وهذه المقاييس التي لا تفوت الضمير المستنير ، تقضي بعدم الفصل بين وجهي العلاقة الزوجية . ان الطبيعة او بالاحرى مكون الطبيعة لم يجمع عبثاً في الحب بين غبطة الالفة الجسدية والروحية من جهة وايلاد البنين من جهة ثانية ، او بتعبير آخر بين تمام الشخص وبقاء النسل ، واذا كان الله قد جعل هاتين الغايتين من الزواج ناحيتين مرتبطتين لعمل واحد ، فليس للانسان ان يفرق ما جمعه الله ، بل عليه ان يأخذ بما سلمه اياه الله على نحو ما كونه .

وان اعترض معترض ان الله لم يجمع بين وجهي العمل الزوجي جمعاً لازماً ، لان هذين الوجهين يفترقان في ايام القحل وفي زواج العاقر ، فاننا نجيب بان الذي كون قد تولى هو عينه الجمع والفصل ، عندما اقتضت وعلى قدر ما اقتضت هذا او ذاك مقاصد الحياة ، فقضى بالفصل عندما رأى فيه خيراً لازماً ولم يرَ فيه ضرراً حاسماً ، وقضى بالجمع عندما رأى فيه قيام مصلحة الحياة . ولا شك في انه قد رتب ما رتب على خير ما يمكن ان يكون الترتيب . وعلى الانسان بالتالي ان يتقيد بهذا الترتيب دون ان يحدث فيه خللاً . وان هو تقيد بهذا الترتيب ، فلا حرج عليه من قطف اللذة يوم تأتيه زهراً بلا ثمر . اما ان يتحكم لقصد

براني بنظام الطبيعة ، ففي ذلك خروج على سنة الخلق وتحد لارادة الخالق .

٦ – المآزق العملية

اما المآزق التي تعترض حياة الزوجين ، فمن الصعب الخروج منها من باب واحد . ليس بالنادر ان تتعارض في حياة الزوجين ظروفهما الخارجية او مصلحتهما الزوجية ومقتضيات الضمير . من ذلك ان الحرص على الامانة قد يفرض عليهما الا ينقطعا عن العلاقات الزوجية ، وان ظروفهما الصحية او الاقتصادية قد تدفعهما الى الاستغناء عن الايلاد ، واذا كان الضمير لا يسمح بالقيام بالعمل الزوجي على غير سنته الطبيعية ، فكيف السبيل الى الخروج من المأزق ؟ هذا هو الواقع المؤلم الذي لا يشعر الزوجـــان بوطأته الا بعد ان يتأزم ، وقد كان من واجبهما ان يتلافياه قبل تأزمه . ومعنى ذلك ان الزوجين اللذين استسلما لشهوتهما على مداها دون ان يتمرسا يوماً بضبط النفس والتضحية ، وان الزوجين اللذين عاشا بالبذخ او على مستوى يتعذر الاستمرار فيه على غير الاثرياء ، وان الزوجة التي لم تراع في اهتمامها بصحتها مصلحة الامومة ومقتضياتها ، هذان الزوجان لا يجدان مخرجاً من المأزق المذكور في غير اللجوء الى وسائل منع الحبل ، ولو محرمة ، لان مخالفة حكم الضمير تظل في عين الجسد اخف شراً من الضرر بالصحة ، او من تدني مستوى المعيشة او احتمال ضيق العيش ، او من ضبط النفس عن الشهوة . لكن الزوجين اللذين يسيران على نور الايمان ولا ينفيان التقشف من حياتهما بضبط النفس عن اللذة ولو حلالاً ، وبالقناعة من العيش بما يتيسر لامكاناتهما الاقتصادية ، ويعرفان ان يلجأا الى الله لالتماس عونه والتوكل عليه والتمسك بما فيه رضاه اياً كانت التضحية ، اذا اعتراهما ضيق ، يتلمسان الفرج بالوسائل المشروعة ويكلان على كل حال امرهما لله . » ومن

تألم وابتلي فهو قادر ان يغيث المبتلين » (عبرانيين ٢ : ١٨) وهو قادر « ان ينقذ الانقياء من التجربة » (٢ بطرس ٢ : ٩) ، والمؤمنون يعلمون « ان الذين يحبون الله كل شيء يعاونهم للخير » . (رومية ٨ : ٢٨) .

أما الوسائل المشروعة فان المجمع لم يدخل في تفاصيلها لانه لم يأتِ فيها بجديد وما كان فيما مضى جائزاً او محرماً لا يزال قائماً . فاستعمال الزواج ، في ايام القحل ، جائز ولو عن قصد ، اما تمديد ايام القحل ، الى مدى او على مدى العمر ، دون ما مبرر غير رفض الايلاد ، وذلك باستعمال عقاقير لم يستجل الطب عينه عواقبها بعد — والدلائل تشير الى انها من اوخم العواقب — فأمر لم يبته المجمع بتحليل او بتحريم ، لكنه ، فيما يبدو ، امر ينافي المبادىء والقواعد التي اعتمدتها الكنيسة حتى اليوم . والواجب يفرض على المؤمنين التقيد بالشريعة القائمة ، حتى يصدر عن السلطة المسؤولة ما يوضحها او يعدلها . ولذلك اكتفى المجمع بتنبيه المؤمنين الى وجوب التقيد بما صدر او سيصدر في هذا الباب عن السلطة التعليمية بقوله : « لا يجوز لابناء الكنيسة .. ان يلجوا في تنظيم الايلاد سبلًا لا تقرها الكنيسة في تفسيرها الشرع الالهي » (الكنيسة في عالم اليوم عدد ٥١) .

٧ – سر الزواج

هذا تعليم المجمع الفاتيكاني الثاني وتعليم الكنيسة في الحب والزواج ، عرضناه من ناحية تأصل جذوره في الطبع البشري وارتباطه بمقتضيات العقل . وان هذا العرض ليبقى ناقصاً ان لم نشر ، ولو بايجاز ، الى ما يتمم هذا التعليم من معطيات الوحي .

ان الزواج المؤسس على الحب ، والذي يمتاز بالوحدة والديمومة ، ليجد في حب المسيح كنيسته ، لا صورة ومثالاً فحسب ، بل

اساساً ومرجعاً وتماماً وغاية . انه يجد في حب المسيح كنيسته صورة ومثالاً لان حب المسيح كنيسته واتحاده بها حب قائم واتحاد دائم لا ينفصم وقد تكرس ببذل الحياة وبالدم الى دهر الدهور . ولان حب المسيح كنيسته هو المثال الاعلى للبذل المجاني الذي لا يعكره غرض ولا يحده حساب ، ولا يشوب صفاءه كدر . وبما ان حب المسيح كنيسته هو على هذا المنوال وغني بهذه الصفات لذلك كان فادياً وغافراً ، وكان ولا يزال له فعله غير المحدود في تقديس الكنيسة وخلاص ابنائها . وهذا ما دفع بولس الرسول الى تقديمه مثالاً للحب الزوجي بقوله : « ايها الرجال ، احبوا نساءكم ، كما احب المسيح الكنيسة وبذل نفسه لاجلها ليقدسها مطهراً اياها بغسل الماء وكلمة الحياة ، ليهديها لنفسه كنيسة مجيدة لا كاف فيها ولا غضن ولا شيء مثل ذلك بل تكون مقدسة ، منزهة عن كل عيب » (افسس ٥ : ٢٥ — ٢٨) .

وان الزواج ليجد كذلك في حب المسيح كنيسته اساسه ومرجعه وتمامه وغايته . ذلك ان الزواج الانساني ، بشرائعه ومقتضياته ، التي توفر للشخص كماله وللنسل بقاءه ، تلك الشرائع والمقتضيات التي تبينا جذورها في اغوار الطبع البشري وفي نسيج الحب الصحيح ، لا ينجلي جلاءً كاملًا ولا يسلم سلامة تامة ، إلا على نور الايمان بالمسيح وبعون نعمته القديرة . والادلة على ذلك وافرة ، في سلوك البشر ، من ابناء هذا الزمان وكل زمان ، فالمجتمعات التي لم يخمرها خمير دين المسيح لم تنعتق من تعدد الزوجات ومن الطلاق ومن سائر الآفات ، التي تنافي كرامة الانسان او كرامة الحب . والمجتمع المسيحي عينه ، والعيلة المسيحية عينها تماحك نير الزواج مماحكة ان هي لم ترتوِ من روح المسيح وتقتنع بتعليمه وتغتذِ بأسراره وتتقوّ بنعمته . ومن هنا ان حياة الزواج ليست ، كما هو الوهم الشائع ، الحياة السهلة التي لا عصب فيها ولا مثل أعلى لها ، بل هي في الحق دعوة من الله الى

الكمال ، سنتها وتضحياتها ، وغبطتها وافراحها ، وتجاربها وفضائلها ، وتعبها وثمرها . ان الحب الزوجي الصحيح صراط ضيق ، تنمو فيه بنعمة المسيح فضائل السخاء والتفاني ، ونكران الذات وبنيان القريب ، وهو للمتزوجين السبيل الاقرب لحب القريب وحب الله . وهذه الروحانية المسيحية للزواج هي ما اخذ يدركه المتزوجون المؤمنون ، من ابناء زماننا ، الواقفون على حقيقة دينهم ، الواعون غنى ايمانهم ، العاملون باستقامة وجد في سبيل كمالهم ، وهي ما ينبغي ان يقابل به التطور العصري في المفـــاهيم والامكانات ، الذي أشرنا اليها في القسم الاول من هذا البحث ، كي لا يكون هذا التطور مدعـاة للضلال والهلاك ومزلقاً للحب عن عرشه ، بل سبيلاً الى النمو في الانسانية ومرقاة للسمو في القداسة .

وهكذا اذا ادرك المؤمنون سمو دعوتهم وغنى حالتهم الزواجية واشبعوا بروح المسيح سيرتهم ، يصبح الحب والزواج ، لا لذة من لذات الحياة الدنيا الفانية او حلقة من حلقات الوجود الكوني الاصم ، بل كوّة مفتوحة على ما فوق الطبيعة وما فوق الزمن ، حيث الهناء الذي لا يذبل والبهاء الذي لا يشحب والحب الذي لا يموت . واذا كانوا في الابدية لا يزوجون ولا يتزوجون ، فحسب الزواج ان يكون قد جعلهم يخبرون في هذه الدنيا لا لذة الحياة الدنيا فقط بل حقيقة الحب الذي هو من الله بل هو الله .

٨ – مقتضيات النهضة في حياة العيلة

ولا نجد بداً في ختام هذا البحث من الرجوع الى النصائح الرشيدة التي اثبتها المجمع الفاتيكاني الثاني في نهاية كلامه على الحياة العائلية . ففيها لكل من يهمه امر العيلة او يجب عليه ان يهتم له ، حكمة وهدى وشرع وسنّة . وها هو كلامه نثبته بحرفه :

« ان العيلة هي مدرسة الغنى الانساني ، لكنها لن تبلغ تمام

حياتها ورسالتها ما لم يتوفر فيها بذل النفس عن رضى ، واشتراك الزوجين في التفكير والرأي ، وتعاون الوالدين على تربية البنين . ان لحضور الاب دوره الفعال في تنشئة البنين وضروري كذلك اهتمام الام البيتي الذي يحتاج اليه الاولاد ولاسيما الاصغرون ، دون اغفال رقي المرأة الاجتماعي المشروع . أما الاولاد فيجب ان يربوا تربية تمكنهم ، اذا ما بلغوا ، ان يختاروا ، عن وعي تام لمسؤوليتهم ، دعوتهم حتى المقدسة ، وحالتهم التي تتيح لهم ، اذا عقدوا زواجاً ، ان يؤسسوا عيلتهم الخاصة في ظروف ادبية واجتماعية واقتصادية ملائمة . وللاهل والاوصياء ان يكونوا للاصغرين ، بارشاداتهم الحكيمة التي يجب أن تكون مسموعة ، قادة في تأسيس العيلة ، على ان لا يدفعوهم قسراً ، بطريقة مباشرة او غير مباشرة ، الى الزواج أو الى اختيار شريك الحياة .

وان العيلة التي تجتمع فيها اجيال شتى ، تتعاون على اكتساب المزيد من الحكمة وعلى التوفيق بين حقوق الاشخاص ومقتضيات الحياة الاجتماعية ، لتصلح ان تكون أساساً للمجتمع . ولذلك يجب على كل من لهم تأثير في الأسر والمجتمعات ان يعملوا على تشجيع الزواج والعيلة . ولتعتبر السلطة المدنية من واجباتها المقدسة الاعتراف بما يمتاز به الزواج والعيلة وحمايتهما وترقيتهما ، والدفاع عن الآداب العامة وتشجيع الازدهار البيتي . ويجب ان يحمى حق الوالدين في الايلاد وحقهم في تربية الاولاد في حضن العيلة ، كما يجب ان يحمى بتشريع واع ومشاريع مختلفة ويشمل بالعون المناسب من حرموا لسوء الحظ نعمة العيلة .

وليسعَ المؤمنون بالمسيح سعياً حثيثاً ، واعين الزمن الحاضر ومميزين الباقي من العابر ، الى تعزيز قيم الزواج والعيلة ، بشهادة سيرتهم وتآزرهم في العمل مع جميع ذوي النية المستقيمة ، فيتداركوا ، من خلال المصاعب ، حاجات العيلة ويؤمنوا لها من الفوائد ما يناسب العصر الحاضر . وانهم لواجدون على هذا السبيل عوناً كبيراً

في روحهم المسيحي ، وفي وجدان الناس المستقيم ، وفي حكمة المتضلعين من العلوم المقدسة وخبرتهم .

وان المتضلعين من العلوم ، ولا سيما البيولوجية والطبية والاجتماعية والنفسية ليستطيعون ان يؤدوا خدمة جلى لمصلحة الزواج والعيلة ولتأمين الضمائر ، ان هم حاولوا ، عن طريق تبادل الابحاث ، ان يوضحوا بمزيد تدقيق الشروط المؤاتية لتنظيم الايلاد تنظيماً لا ينافي الضمير .

أما الكهنة ، المثقفون الثقافة الوافية في الامور العيلية ، فمن خصائصهم ان يحيطوا بالعناية دعوة الزوجين ، مستخدمين الوسائل الرعائية المختلفة من الكرازة بكلام الله ، الى الرتب الطقسية الى سائر المعونات الروحية التي تتناول الحياة الزوجية والعائلية ؛ ان يقووا الزوجين باناة وصبر ويشددوهما بمحبة ليستطيعوا ان يقيموا عيالاً طافحة بالنور .

ولتسعَ الجمعيات ، ولاسيما جمعيات العيال ، الى تثبيت الشبيبة والمتزوجين أنفسهم ولاسيما الحديثي الاقتران في العقيدة والفضيلة ، والى ترويضهم على الحياة العيلية والاجتماعية والرسولية .

وأخيراً ليتضافر المتزوجون أنفسهم الذين خلقوا على صورة الله المحيي واقيموا في مكانة شخصية صحيحة ، على الاتحاد فيما بينهم قلباً ورأياً وجهداً مقدساً ، حتى اذا ما تبعوا المسيح أساس حياتهم ، يشهدوا بحبهم الامين في أفراح دعوتهم وتضحياتها ، لسر الحب الذي كشفه الرب للعالم بموته وقيامته » (الكنيسة في عالم اليوم عدد ٥٢) .

قصة • قصة • قصة • قصة • قصة • قصة • قصة • قصة • قصة •

طعم الراحة

بقلم

نصرت توفيق خريش

لماذا لا ارحل عنك يا قريتي ؟

وحكاية « جبر » تكاد تنطبق عليّ ، وتكون لوحة قبري نسخة طبق الأصل عن لوحة قبره :

(هنا يرقد جبر ، من بطن امه للقبر ، لم يذق طعم الراحة ...)

لماذا ابقى فيك يا « ام النعمان » ، وقد مزقك كبرياء الناس وتعاليمهم ؟ ...

وحدي انا ، ونفر قليل من سكانك ، نعمل في الارض ، منذ شروق الفجر حتى دبيب المغيب ، فلا نلاقي الا التعب والعرق والدموع وهزء سكانك الميامين ! ... هؤلاء لا يتعبون ولا يشقون ... يأكلون لقمتهم على مهل ... مضمّخة بالعسل ... يأتيهم المال من وراء البحار ... من المهاجر البعيدة ... ونحن وحدنا نحرث ونشقى ، وتكون لقمتنا صعبة المنال ! ... ندفن الحبوب في صدور الارض ... نقامر بها ... ننتظر المواسم شهوراً ... نشذّب اشجارنا لتؤدي بنا الى سلالم السعادة ، فلا تنتصب السلالم الاّ في الفصول ... يطول انتظار القرش على ارضك

يا « ام النعمان » ، في قلوب الفلاحين امثالي ... والحياة فيك اصبحت لا تطاق ... هالات من البهرجة والغطرسة تحيط ببيوتك ، وتظهر في ملابس نسائكِ ورجالكِ واطفالكِ .

قليلون من يعملون في ارضك يقدرون ان يبقوا في هذه الحلقة ...

نحن وحيدون يا « ام النعمان » ... وغداً تبقى ارضك وحيدة ايضاً ، الاّ من المتبهرجين فلا يطلّ عليها الا من يستأجر من القرى المجاورة ... وصدّقيني ان ترابك صار رخيصاً ... كان أجدادنا لا يبيعونه الا اذا عجزوا عن فكّ مشنوق ، ايام كان الشنق لا يفتدى بعهد العثمانيين بغير المال ... اما اليوم ، فكل من يئس منك باعك ، واشترى بمالك لحماً ، وخبزاً ونبيذاً ، وثياباً جديدة ، على الموضة .

لم يعد من قيمة للفلاح يا « ام النعمان » ، وولّى العهد الذي كان يقال فيه « فلاح مكفي سلطان مخفي » . قيمة الناس بما يملكون من رياش ، ومال وثياب .

لم يعد للخفاء من مكان ، ولّى عهد السلاطين ... وأتى عهد السجاير الاجنبية ، والقبعات الاميركية ، والكرافاتات الايطالية ، والاحذية الالمانية ، والقمصان الحريرية ...

أريد ان ارحل عنك ، وأترك اهلي امانة على ارضك ... أترك ابي ، الشيخ الوقور يقاسي غربتي ... أترك امي العجوز تعاني من غياب وحيدها ما تعانيه من الوحدة ... الا انني سأوافيها بالمال ، كيفما كانت ظروفي ... سأعمل في المدينة كاتباً ... مساعد كاتب ... مراسل مكتب ... لا يهمّ ... المهمّ ان أجد عملاً شهرياً ، يغنيني عن انتظار المواسم والشهور ، شهادتي الابتدائية تخوّلني ان اشتغل براتب محترم ... فأثبت في وظيفتي وترتفع مع الايام اجرتي ! ...

ومع اول بوسطة هدرت في ساحة القرية ، مقلعة نحو بيروت ، كنت ازرع آمالي في اشداق المجهول ... تاركاً العنزة السوداء تودعني

بجملقة من عينيها الواسعتين ، والثوران النشيطان يستريحان في الاسطبل ، بانتظار « سوق الخميس » فيعرضها والدي للبيع ... ويعرض معها حمارنا الصبور ، بارخص الاثمان .

وكان لي خالة تسكن حياً ارستقراطياً مع زوجها في رأس بيروت ، فنزلت عندها ، ريثما اتيسر باستئجار غرفة تتناسب مع حالتي .

عندك هنا ، السعادة ، يا خالتي ... الكهرباء ... الماء ... التلفون الاوتوماتيكي ... البراد ... التلفزيون ... النزهات البحرية ... الافلام السينمائية ...

كم يسعد الانسان عندكم في المدينة ، تستحمون بالماء الساخن والبارد ساعة تشاؤون ... ان المرء هنا يشعر بضآلة القرية ... هنا يدفن الانسان احزانه ... اريد ان ادفن متاعبي ! ...

كم من فارق بين حياة خالتي هذه ابنة المدينة ، وحياة امي تلك ، ابنة القرية ؟ ... مسكينات بنات القرية ، لم يهنأ بينهن الا من ذهب اولادها الى المهجر او المدينة ... لا يأتي المال الا من المهجر والمدينة .

مواسم الارض لا تعطي المال .

عجيب سر هذا المال ... لا يسعد الا من امتلأت جيوبه منه ... ومن كانت جيوبه فارغة فقد احتواه ظلام الحياة ...

وكان زوج خالتي يحب فيّ بساطتي ، على حد قوله ، وعباراتي القروية ، وكلامي المنسق ، واخلاقي التي لم تطأها بعد افكار المدينة ... وقد ابدى لي استعداده لوظيفة انزل في بحرها ، فأعبر من شاطىء الافلاس ، الى شاطىء المال ... ولم يكن من مجال امامه ، وانا حامل الشهادة الابتدائية ، الا ان يوظفني في شركة للطيران ، مساعد كاتب ، بمعاش جيد .

شعرت وانا اتسلم عملي ، بزهو ولا اكبر .

لان شهادتي التي كان يصورها لي اهل القرية ، بانها لا توازي شيئاً ،

وبان حامليها من ماسحي الاحذية يلصقونها على « علب البويا » ، صارت هذه الشهادة شيئاً عملاقاً في يدي . ترفع الآمـال في افق حياتي ليس همساً ، بل جهراً وحقيقة ، سأكتب عنها للوالدين في القرية مبشراً ، وسأتكل على معاون « البوسطة » ان ينقل رسالتي اليهما ، وان يقرأها لهما على مسمع من الجيران والجارات ...

وسيعرف الفتيان في القرية ان الشهادة الابتدائية شعاع ذهبي ، يفتح لها عامل المصعد الباب ، ويناديني سائق التاكسي من اجلها : الى اين يا استاذ ؟ طالع يا استاذ ؟

واذا لم يصدقوا فسأدعو غير المصدق منهم الى عندي ، وسأدخله معي الى المحلات التجارية ، وسأجعله يسمع التاجر ، اي تاجر ، كيف يرحب بي :

تفضل استاذ !... تكرم عيونك استاذ ! ... بلا مصاري للاستاذ ...

واستأجرت داراً تتألف من غرفتين ومطبخ ، اجرتها الشهرية ربع المعاش ، كثّر خير الله وشكراً للخالة وزوجها ، سأردّ لهما المعروف في المستقبل ان شاء الله ...

جيراني في البناية طيبون ، وسأكون معهم اطيب ، اذا دعا الامر .

صاحب الدكان يحييني دائماً ويقول :

أأمر أي خدمة يا استاذ ...

وعندما اشتري من دكانه يقول : اذا ما في معك خليها لآخر الشهر يا استاذ ...

وتوالى شهران ... ثم ثلاثة ... ثم خمسة ... وانا امشي في الشركة على زعمي مثل الساعة . وكاد لا يعكر راحتي الا فظاظة هذا الكاتب الذي عينوني مساعداً له ...

يا الله ، كيف ينقلب الناس ؟ ماذا دهاك يا حضرة الكاتب ؟ ! ...

ما الذي بدّلك ؟ أمن اجل غياب ساعتين تُعلم المدير ؟ ! ...

ما قيمة الساعتين في حساب الشركة ؟

هل انكسرت الشركة ؟

هل أعلنت افلاسها من اجل غيابي ؟

هل علقوا لك وساماً ؟

يا الله ما اضيق الناس ؟؟؟

ودعاني المدير اليه .

– اسمع يا « حيدر » . نحن اكراماً لزوج خالتك ، عيَّنّاك في الشركة ، مع انك لا تحمل من الكفاءات العلمية الا الشهادة الابتدائية . فصرت تعمل عنتراً ، على الكاتب المسؤول عنك . مرة تتأخر عن العمل . ومرة تتمرد على اوامره . و ... و ...

فرحت ألملم افكاري ... أجمعها ... أصيغ من كلماتي الفارة اعذاراً.

– الكاتب زادها علي يا سيدي .

– وانت زدتها على الكاتب ، وعلى الشركة ، يا خواجه . روس كبيرة ما بدنا ، مضيعة وقت ما بدنا . انت مفصول عن العمل اعتباراً من صباح غـــد .

ونزلت من مكتب الشركة مهرولاً ... مهزوماً ... لم استعمل هذه المرة المصعد الكهربائي لقد كنت اتخاذل على سلم الدرج ... مشياً على اقدامي . تنتصب امامي البطالة ... الحقد ... البحث الجديد عن عمل جديد .

وكرّت شهور سوداء ... ديون تستحق لصاحب الدكان ... ثلاثة شهور غير مدفوعة عن اجرة الدار ... وجبات طعام حقيرة ... شبع قليل ... ضياع ... اضمحلال ... ضلال ... حياة ربما تنتهي بفاجعة .

كل الوعود التي كنت انتظرها للعمل ذهبت في خبر كان ...

– آسف يا استاذ .

وعندما يشفق الله ينزل السعد من السماء ...

ربحت الجائزة الكبرى في اليانصيب .

تصدرت صورتي الصحف .

انتفخت ... الا انني لم اطق من الغرور هذه المرة .

قبضت المبلغ وركبت احقر سيارة متوجهة الى « ام النعمان » ... لاشبع معدتي .

لاستغفر ابي وامي .

لاعتذر الى ارضي التي انكرتها وحقدت عليها ... انها ستحتاج الى الكثير من العناية والمال ...

لن اضن عليها بشيء .

سأعود انتسب الى ترابها ... وكرومها ... وبساتينها ... وصخورها ... وسأعرف هذه المرة كيف احب التراب وابني لي بيتاً على التل .

لماذا

أومن بالحرية ؟

بقلم

الاخت كليمنص حلو

رئيسة مدرسة راهبات الانطونيات في زحلة

آبائي الاجلاء ، اخواتي الفاضلات ، ايها السيدات والسادة

أوَليس من الغرابة ان يطرح مثل هذا السؤال على من نذرت نفسها لله تحت نير الطاعة ؟ راهبة خادمة الله جعلت من حياتها منذ الخامسة عشرة « وقفاً » ، اداةً طيعة بين يدي رؤسائها يديرونها كيفما يريدون . لوجودها اتجاه موحد ، اهداف مسيرة ، مصير حتم . تحت ضغط هذه الانكماشة المطبقة ، كيف أحدثكم عن مغريات الحرية ، عن منطلقاتها ومغامراتها ؟ اليس الاحرى بكم ان تبدأوا بالسؤال الجذري ، هل تؤمنين بالحرية ؟

والاغرب ان يطلب مني في هذا الحديث لا العرض الفلسفي والنظري المجرد في مبدأ الحرية بل تجربة الحرية في حياة عشتها في مراحل ومراحل، عبر حوادث ووقائع طبعت وجداني، ووجهت تاريخ نفسي، غير متحفظة ولا محجمة عن البوح العفوي، بكل ما يحيط بالأنا من اسرار وكوامن، ارتاح السامع لها ام لا، وارتاحت لها المحدثة ام لا، طالما التحدث والاستماع مفروضان علينا جميعاً.

فالمطلوب اذاً ان اعود الى نفسي، ان اناظر شخصي الاصيل واستجلي معالمه الطامسة، مهتدية الى «وزنة» الروح وقيمتها الضاجعة في اعماقي، متسائلة هل انا حرة ؟

نعم هل أومن بحرية وجودي كأنسان ؟

هل كنت حرة عندما اقدمت على ضبط حريتي في اختيار مستقر لا رجوع عنه ؟

اولاً – ما اكتشفه ؟

لفتة الى الماضي الى تلك اللحظة الضائعة التي أودعت خلالها احضان الكون وجوداً يحمل عوالم من معطيات طبيعية وفائقة الطبيعة. فيّ تسلسلت

طاقات الآباء والاجداد : عاداتهم ، تقاليدهم ، ميولهم ، وكل ذلك الى اجيال خلت . هل كنت حرة في انتقاء تكويني ، بيئتي ، مواهبي ، حتى اسمي ؟ عبادتي ذاتها فرضت اشكالها علي .

وماذا اقول عن تربيتي ؟ ان اصولها تتركز في السنين الاولى اللاوعية وما نقتنيه في الثلاث السنين الاولى من طفولتنا يوازي ثلاثين سنة من باقي عمرنا في النمو عمقاً وسرعة .

العادات التي نتمرس عليها ، التعابير التي نقتبسها ، الاصوات التي نسمعها ، والبسمات التي تشرق في عيوننا ، حتى الالوان التي نراها ومناخ المحبة او البغض الذي نترعرع فيه ، كلها عوامل تقولب طبعنا وتوجه ميولنا ، وتركِّز شخصيتنا على غير علمنا او اقتناع منا بها .

ولم يكن « فرويد » بكثير المبالغة عندما بيّن ان هذه الحياة الباطنية العميقة اللاواعية ، المتكوّنة دوننا ، هي مصدر وأساس تركيبنا .

وكذلك برغسون فانه شبَّه هذه الذخيرة التي نخزنها في أعماقنا بهرم يحتوي على الاحاسيس والاحلام التي تسيّر حياتنا .

أسيرة اسم قيَّدني به غيري، اسيرة وظيفتي ولغتي، أسيرة عاداتي وغرائزي ومزاجي والتقاليد التي ترسم لي طرقاً ما اخطتها لنفسي، أسيرة المناخ والمعطيات الطبيعية والبيئة الاجتماعية والسياسية والدينية التي وجدت فيها، أسيرة الاختراعات الحديثة التي كثيراً ما تغلّني بدل ان تحررني، أسيرة ماضيّ وحاضري وبالتالي مستقبلي، فأي مجال في حياتي للحرية التي يتغنى بها الفلاسفة وينشدها المتصوفون ؟

ولكن ما معنى ان هذا الاسر يرهقني ؟ أثور عليه مرة وأنوء تحت ثقله مراراً .

ما ذلك إلّا لأن صوت الحرية السجينة في أعماقي كثيراً ما يئن مطالباً بالانطلاق متحدّياً الحواجز والأغلال، وان كان دون جدوى .

فطبيعتي تأبى الركون لعجزها وتتوق للتحرر من ثقل المادة التي تشلّ قواها، ومن الآخرين الذين يحدون من اندفاعها، ومن الاشياء التي تصدم بعنف وثبتها، ومن صراع النفس مع ذاتها . انها تتوق للمصالحة مع آخرها، ولانجاز الوحدة في داخلها، للنهوض بالانسانية التي فيها، والسيطرة على الكون وبناء المجتمع البشري واكتشاف الفرح وامتلاكه .

ان عقلي يتوق الى الحقيقة ولا يبرح يفتش عنها ، ولا يرتاح إلا فيها رغم الفشل الذي يمنى به والصدمات التي تحد من آفاقه ومحاولات الانانية ومنطق « المعقول » من ردعه عن العطاء السخي والمجازفة .

وارادتي لا تستقر إلا بالخير رغم الضعف الذي يشلّها والاهواء التي تتجاذبها : « الخير الذي اريده لا اعمله والشر الذي لا اريده اياه اعمل » (رومية ٧ : ١٩) .

ومحبتي تهفو الى الجمال الأسمى وتودّ ان تتوزع على الآخرين توسلًا وحنواً وتزكية ممكنات رغم الفراغ الذي تئن منه وميول التحكم والاذلال التي تتسلح بها لتخفي مركبات النقص فيها .

وشخصيتي بدورها تدعوني لتحمل مسؤولية تصرفاتي ولاعادة النظر ـ مع ما في ذلك من صعوبة بل ومن إحراج ـ في كل ما يقدمه لي الرأي العام والجرائد والتلفزيون من أساطير عصرية تجسِّم بعض القيم وتحصرها في مفهوم ضيق النطاق لا يتبدل . مثل الدعاوات دون تمييز لكل ما هو أجنبي من لغة وعادات وازياء ، والصيغة الشبه إلهية التي يضفونها على بعض مشاهير الفن والرياضة والسينما ، فاذا هم مُثل عليا يحتذى بها دون قيد ولا شرط .

والتشبث بالتقاليد الدينية كمفهوم لا يتبدل ولا يتطور مع الواقع، مفهوم مغلق على ذاته يتبرأ منه اله المحبة والخلق. تصبح معه الطائفية البغيضة فاضحة تبطن تحت ستار التسويات العادلة. انانيات بينة، تحبس الانسان عن الله وعن اخيه الانسان.

هذه الانتفاضة للتحرر من ربقة المضادات، وهذا الصراع المتواصل بين المادة والروح، هذا الميل الجارف الذي يشد بي دون هوادة الى السير الى «الامام» الى التطلع الى «ما فوق»، حسب تعبير تيلار دي شاردان، انما هو نداء الحرية وانطلاقتها: اباغتها في «الجرم المشهود» وهي تحاول التوثب وتخطي الحدود.

وهذه الحرية ليست بنت يومها. لها في كل لحظة تاريخ وفي كل يوم بداءة حسب قول القديس يعقوب: «لم نصر بعد خليقة كاملة بل نحن نوع من بداءة الخليقة».

حريتي حريات. هي حركة التحرر المتواصلة التي اعتقتني من ربقة الحاجة عندما كنت قاصرة وصيرتني على ما انا عليه من استقلال في النطق والسير وسد العوز.

هي الاندفاع الذي حثني ويحثني وأتجاوب معه في جو من المحبة والاخلاص، كي اتملص ـ ولو على قدر ـ من «النرسيسية» المستبدة، وانفتح على حاجات الغير ومتطلباتهم.

هي الانظمة القاسية التي تسيرني عليها طرق التعلم والتعليم فتعودني التفكير الشخصي وترفعني من مستوى المحسوسات الى عمق التجريد وسمو المنطق.

هي الحرمانات التي يفرضها علي الدين والمجتمع فيعلمني لذة التضحية وسمو التخلي عن الذات.

هو الاخذ باكتشافات التقنية الحديثة لتوسيع آفاقي وتقريب المسافات بيني وبين العالم.

هذا التحرر هو تجربة حياة لا تنتهي، نعيشها كل مرة تحاول الطبيعة فينا ان تسمو على ذاتها، وهذا الانتصار لن يكون ابداً كاملًا ولذلك فان عمرنا ينقضي بين المد والجزر، بين جواذب الضعف والقوة، بين تفاعل الشك واليقين: لان «حياتنا عبور دائم من مشروع انسان الى انسان كامل». استجابة لنداء الحرية الملحّ. فما هي الحرية؟

ثانياً - ما هي الحرية

على ضوء تجارب التحرر التي عشتها ، تبدو الحرية في القدرة على خلق ذاتي على النحو الذي اريد لا خلقاً من العدم وهذه صفة يتفرد بها الله ، بل خلقاً هو صوغ معطياتي الطبيعية والفائقة الطبيعة وبلورتها مرتبطة بالتاريخ بالزمان والمكان .

فاسمحوا لي ان أعطي بعض الامثلة الحسية التي وان كانت لا تمثل فعلي الحر بحد ذاته ، فانها تعطينا صورة تقريبية عن عملية الابداع والخلق التي تحققها الحرية .

فالابداع الذي تحققه الحرية هو أشبه بعملية الفنان كالمهندس الموهوب مثلاً . تستهويه تصاميم ارتسمت له في هنيهة إلهام فينتقي احدها ثم يأخذ يبرزه الى حيز الوجود مكيفاً تصميمه حسب معطيات الطبيعة والاشخاص .

قد يصطدم بأرض صخرية او بتربة سريعة التفتت . قد لا يتفهم العملة فكرته ويتعرض لتقلبات الطقس ، يضطر ان يحسب الف حساب لحرارة المنطقة ورطوبتها واستنارتها . ولكنه بالرغم من كل هذه العوائق ، بل بواسطتها ، يخلق بناء جديداً له صورة

خاصة فيه اكثر من حجارة وطين . يجسِّد فكرة مبدعه دون ان يستوعبها بالتمام .

والموسيقي والشاعر والرسام ؟ من عصارة افئدتهم ومضض روحهم ووثبة ايمانهم بالفن يصيغون في سحر الالفاظ والالوان والانغام منطلقات رحبة لاحلامنا رغم الضعف والمضادات والظلمات التي تحيق بهم . هي نصرة الروح المجنحة على ثقل المادة وهجعة النور يبدد العتمة والوجود يجتاح العدم .

والقديسون والرسل، هؤلاء الفنانون مجانين الله، على انقاض حياتهم بنوا ويبنون للسيد ملكوتاً ، مداميكه من شعلة الايمان المضطرمة في باطنهم، ولو ضئيلة ، كالفتيلة تمتص زيت قنديل حقير . ويولدون كل يوم لذواتهم انساناً جديداً يتبلور رويداً رويداً في خلق يومي . وهكذا يطيرون من نصرة الى نصرة حتى يتجلى لهم – كما قال النبي داود – إله الآلهة في صهيون ، الموطن القصي والنهائي للحرية والحق والجمال .

فمن خلال هذه التشابيه للافعال الحرة الخلّاقة هذه ، يمكنني أن اتبين في الفعل الحر ثلاث مراحل ، هي بالواقع متداخلة عنيت بها مراحل التقرير والانجاز والرضى المقتنع الى حد التسليم ، يحصر القوى والمعطيات

الفاعلة في موضوع معين . هذا مع الاشارة بأن الرضى يحتل مركز الحيوية بين مرحلتي التقرير والانجاز ويكون بينهما رابطة باطنية تتحمل مسؤولية الوحدة في الفعل الحر الكامل .

١) التقرير

هو عناصر مشروع تتجمع في عقلي فأركِّز اختياري عليها . وتبنّي التقرير رهين شخصيتي بكاملها ، وحصيلة هذين المتفاعلين : ارادتي وعقلي . فارادتي تقرر « اريد ، اصمم ... » وعقلي يتبين المبررات « اريد معتمدة على تلك الحوافز او سواها » .

وعظمة الانسان ومأساته ان تكون الحرية مثل غيرها من القيم الانسانية كالامانة والحب والايمان قيد مغامرته. أودع حق اكتشاف اهدافها ، وتقدير المسافة التي تفصله عنها ، وتقدير مصيره تجاهها . فلو اغدقت عليه مجاناً او خلعت عليه كما يخلع علينا الثوب الذي نرتدي دون ان يغامر في مسؤولياتها لفقد سر تفوقه ومعنى حياته وفرحها. هذا الفرح الذي هو ثمرة التفوق والانعتاق .

فمشروع التقرير الذي اعتزمته يبقى في عالم

المرجوات الى ان يحده الاختيار ويتبناه في الحاضر. وقوام الاختيار ان ننتقي بين الخيور المختلفة التي يقترحها العقل علينا احدها ونرفض الباقي واضعين حداً للحيرة والتقلب الملازمين للبحث في مرحلة التصميم.

من هنا تتضح لنا اهمية الشك من اجل تطور الفكر ونتبين دوره الفعال في تركيز المناهج الفلسفية كما فعل السابقون من امثال الغزالي وديكارت.

والاختيار في جوهره التضحية حتماً بقيم لانتقاء غيرها او بهدف للتوصل الى سواه، او بميزة لاقتناء اخرى. وعندما اخترت ان اكون مربية لفتاة بلادي ضحيت بامكانات ومواهب اخرى كأن اكون مرسلة في الخارج او ممرضة او مساعدة اجتماعية او طبيبة الى ما هنالك من طاقات انسانية جلّى.

وهكذا فالتضحية مركزة في قلب الافعال الانسانية اية كانت والرفض بداية كل تطور ما عدا الرفض الذي ينتهي الى مجرد رفض. كالذي اعطى امثولته «جيد» في كتابه « Nourritures terrestres » حيث قال: «لم اكن ابداً لاطيق حتمية الاختيار فالانتقاء بالنسبة لي الحرمان مما ارفضه اكثر منه اختيار ما افضله» وافضى بهذا المفكر المقام الى ان

فهم الفعل الحر بكامله مجرد عدم اختيار . فاذا ببطل الحرية « Lafcadio » في كتابه « Les Caves du Vatican » يذهب به الهوس الى ان يقترف جرم قتل مجاني لمجرد اثباته استقلاله الذاتي .

فالاختيار اذن قدرة موجهة يجتذبها الخير لملائمته لطبعنا بل يفرض عليها فرضاً ، ولكن يبقى باستطاعتها ان تنجرف مع الشر كما يحدث غالباً لسوء الحظ ولولا هذه الازدواجية في امكانية انتقاء الخير او الشر لما كان الاختيار اختياراً » .

وتقرير مصيرنا بالفعل الحر لا بد ان يرتكز على حوافز تبرره ، تختلف تماماً عن عفوية الغرائز. فالاستسلام العفوي للاهواء الغريزية لا يمكن ان يعد اختياراً بل تنازلاً واسراً اشد ظلماً من الجحيم واكثر تحكماً ، في منطقه ، من الجنون . والحوافز الحقيقية هي المبررات التي نعتنقها عن رضى لا تلك التي تنقضّ علينا من الخارج بل تلك التي تستغني وتتبلور بتفكيرنا فاذا بها قوة جديدة تدفعنا للعمل وترقينا من نصر الى نصر الى قمة التضحية .

وكأني بالاختيار ينبثق عن تناقض يتفجر من الداخل . وما اعتناقه القيم السامية سوى وليد انتقاء

حر ومفروض في الوقت نفسه، وما الانصياع لها سوى مبادرة عفوية على قدر ما هي خضوع سخي.

لانه لا يمكننا ان نرتجل الاختيار او نقرره جزافاً. انه خاضع نوعاً للميول السائدة التي تمركزت في تاريخنا. ينضم كل مرة الى منحدراتها ويقوي بدوره زخمها.

٢) الانجـــاز

والتقرير وثبة تبقى عقبة اذا لم تحقق وتكمل. كالموسيقى لا تتجسد إلا بين أنامل الفنان وهو يعزف انغامها على آلته.

وتحقيق الاهداف يتطلب جهداً يرتكز على قدرة الجسد وعزيمته، فيلاقي هذا التحقيق في الجسد مقاومة ومناصرة.

فتقاومه الاهواء التي تحاول ان توّحد قوى الانسان لنصرتها. هي كالسرطان ينمو ويتكاثر في مكان معين من الجسم مؤلفاً جسماً جديداً في وسط الجسم ودولة في قلب دولة فينشأ الانقسام وتتشتت القوى وتشل العزيمة.

تقاومه العاطفة الجامحة (اياً كان موضوعها حباً

او انتقاماً ام بغضاً) والتي هي أشبه بالشلال الجارف ينقض على الجسم فيزعزعه في مجمل حواسه ناشراً الذعر والبلبلة او اقله الاضطراب .

تقاومه الشهوات والغرائز المستبدة وخصوصاً العادات المتسلطة التي وان كانت حسنة ، تحدّ من تفجر الفعل الحر ، وتحاول ان تسيّره في طرقها المرصوصة وفي دورانها الرتيب الممل .

فكيف ، رغم هذه المضادات ، نسيّر جهود جسدنا لتتميم الفعل الحر ؟

ان العادة التي يمكنها ان تضع ولا شك في وجه تطورنا هي بالوقت نفسه ، واسطة تنظيم وتدريب لحركاتنا وافعالنا .

فالميول الثابتة التي تركّزها العادة فينا ، جاعلة منها طبيعة ثانية ، تساعدنا على الحدّ من قوة التأثيرات الطارئة وعنف النزوات وتحكمها . وبمجراها الاعتيادي الذي تفرضه على تصرفاتنا تساندنا في السير الموحّد نحو تتميم اهدافنا . وكأنها تجمع قوانا في حاشدات لتوزعها وقت الحاجة .

وان كان من منفعة للرياضة البدنية فهي هذه

السيطرة التي تفرضها على أعصابنا فتروّضها وتمتلكها.

وتحتاج العادة من وقت لآخر لقوة دافعة لها من كبوتها، فتهزها من خدرها وتعيد لها التفاعل الثوري. فاذا التأثير المفاجىء قوّة خلّاقة تهاجم الضمير المستكين مهاجمة الوحي والالهام، فتقلب وتخرب فلا منجاة حينذاك من اعادة النظر في الاوضاع وصوغها في قالب جديد.

وعندها يتم لقاء الارادة والقدرة في اختطاف فرح اشبه بالذي توحيه أنغام موزار، فرح هو قمة التأثيرات ورمز الوحدة في الانسان وأساس تفوقه.

٣) القبول بالواقع

الى الآن وقد تبينا ان التقرير هو فعل الارادة المبرر بدوافعه بينما الجهد هو ما جندته الارادة من قوى لتنفيذ العمل فهل يكفي هذان العنصران التقريري والتنفيذي ليأتي الفعل الحر تاماً كاملًا ؟

بقيت المرحلة الاساسية وهي بمثابة الروح الضابطة واداة الوصل بين عنصري التقرير والتنفيذ الا وهي فعل الارادة التي تقبل بحتميات الواقع، وتلتزمها، وتمتثل لها، راضية بها لتجتازها الى ما هو ابعد،

الى الهدف الجديد موضوع الاختيار، الذي يغتني بها ويتبلور وكأنه بعث من العدم.

وهنا تكمن معضلة الحرية الكبرى. كيف يمكنني ان اتحدث عن حرية تقرير اعمالي وفعاليتها ما دام تراث ماضيّ ومزاجي بل حياتي كلها بتنظيمها الدقيق مفروضة عليّ؟

اي قدرة تخول حريتي ان تغالب معطياتي وتصوغها في قوالبها؟ اي ملاءمة او امكانية تفاعل بين قوة الحرية الروحية وثقل المادة وجمودها؟

هذا التناقض يمكنني ان اتجاوزه اذا حاولت اكتناه هذه الحتميات وجودياً، فأتولاها نوعاً ما، واستَولي عليها على غرار « Cogito » محولة ثقلها الطبيعي الى بعد من ابعاد الذات. ثم أليست هذه الحتْميات في الغالب حصيلة مقدراتي ومخلفات افعالي الحرة ذاتها؟ فهل لي ان اتملص من كل مسؤولياتي فيها؟

وخصوصاً على مستَوى العيش الواقعي، فانه يتبين لي جلياً ان هذه الحتْميات هي ما يحد من امكانيات الحرية وبالتَالي ما يعطي لحريتنا وجهها البشري اذ ان حرية البشر ليست حرية مطلقة بل مقيدة.

فالضرورات شرط من شروط الحرية البشرية، ومرتكز انطلاقتها، والروابط التي تتفلت منها، والاّ كيف تكون حرية؟

وتتم مصالحة النقيضين عندما تعي ارادتي الواقع، وتتبناه، آخذة اياه على عاتقها، خاضعة لتوجيهاته كأنها مفروضة عليها، تنصاع لمتطلبات الطبيعة، لا عن تنازل وضعف وخمول، بل لتتمكن منها وتستولي عليها وتبث فيها الحياة محولة اياها الى قوة تطور. فامتثال الحتميات اذاً امتلاك لها، تصبح بواسطته خاصة الحرية تحمل طابعها مثلما تتسم املاكنا بسمة شخصيتنا وبوهج اشراقتها.

فتبعات الماضي والمزاج والحياة عينها لا يمكنها ان تتنصل مني ما دمت اعتنقها واستملكها واعطيها معنى ايجابياً يقيّمها ويفقدها حدة جنوحها الى الايقاع بي فأحررها واحقق بواسطتها الوحدة التي ما برحت اتوخى.

هذه الحرية افق الممكنات التي يقترحها الواجب عليّ والجهود التي يطلبها مني اقتناعي وجهدي وصبري الطويل وهذا الاستيلاء الذي هو قوة تطور وخلق. تلمست الحرية من خلال حوادث الحياة اليومية التي

حوّلتها الى تجارب . فلا اطالبن احداً بها . ان مبدأها في اعماقي تجتاح حياتي على قدر مـا افطن لها واسلمها مقاديري .

ثالثاً – على ضوء الفلسفات العصرية

وان كان من فضل في محاولتي اكتناه الحرية فيعود اكثره الى مفهوم الفلسفات العصرية التي اغنت تفكيري ووسعت آفاقه واشاعت فكرة الحرية بين معاصري واجمعت كلها على الاخذ بها والمجاهرة بأهميتها رغم الطرق المتباينة والمتكاملة معاً التي اتخذتها .

فالماركسية مثلًا وجهت آرائي في الاقتصاديات التي هي شرط من شروط الحرية . فيعود الفضل للماركسية بالمساهمة في مصالحة الانسان مع المادة وبالمساهمة ايضـاً بايقاظ ضمير الانسانية الى الحق والعدل واعطاء الاولوية للعمل بين القوى المنتجة ساهياً عن بالها انه « ليس بالخبز وحده يحيا الانسان »، وان البحبوحة مثل الفقر يمكنها ان تفضي الى الاستيعاد وان العدل عندما يسخر للقسر والاذلال انما يتخذ منعرجات تعسفية ويخون مبدأه . وان حتمية التاريخ تنافي تماماً حرية الانسان وكرامته .

وعكس الماركسية صدرت لي الوجودية بعمق وجدارة انتفاضة الحرية وثورتها، لكنها جرّدتها بكبر من شروطها من تحكيم الرواسب والمخلفات، حتى من قيود القيم ما عدا تلك التي هي تعبير عن وجودنا اي الغرائز، كما يزعمون. كأن هذه بطلت ان تكون اغلالاً. اذ ما معنى الحرية في نظرهم اذا لم تكن استقلالاً تاماً وشملاً بما لا نهاية له بالتفلت من كل قيد؟

فاستسلم سارتر لما اسماه «دوار» الحرية وهو يقوم برفض كل حدود. انه دائرة الذات المغلقة على ذاتها. تعمل من ذاتها ولا تعتمد إلا نفسها وفي ذلك رفع الذات الى درجة الاله.

وثارت سيمون دي بفوار على اوضاع محيطها وحطمت قيود التقاليد والعقائد في انطلاقة جريئة وسار في اثرهم كثيرون امثال فرنسواز ساغان وغيرها. فعلمني هؤلاء جميعاً، ولا شك، غنى الرفض والتساؤل، وفعالية اعادة النظر في الاوضاع القائمة، وقيمة الاستقلال الذاتي في اقتناء الحرية. لكنهم فشلوا اذ توقفوا عند هذه الوجهة السلبية المجردة وكأنها أسطورية. وعبثاً حاولوا ان يقنعونا بامكانية خلق ذواتنا من لا شيء، والتجرد عن كل ما يحدّد

هويتنا ، والتملص – عن طريق التحدي والتمرد – من شرائع تضيق علينا بكابوسها ، وقطع وشائج وثيقة تشدّنا الى الآخرين ، والتحرر من كل ما يحاول ان يشلّ شخصيتنا ولاسيما من أنظار الآخرين التي تترصدنا ، وتشعرنا بعبء وجودنا . هذه النظرات التي حسبها سارتر جحيماً .

كيف يقنعوننا بمبدأهم والحرية التي استسلموا لها « وحكم عليهم بها » لم تفضِ بهم الى الانعتاق ، بل أدت الى الحيرة واليأس حتى التفاهة . فاذا الانسان « هوىً عقيم » يتخبط دون جدوى في جحيم « Huis - Clos » ، مدفن الحرية ، محكوم عليه بالاستعباد للآخرين او بمحاولة استعبادهم له . لذته الوحيدة ان ينعم – ان كان هناك من نعيم في دنياهم – بحرية خيالية لا هدف لها ولا ارتكاز تتلألأ انوارها امام ناظريه كنافورة ماء تتدفق لماعة تحت وهج الشمس بينما الكل حولها يهلك عطشاً .

وكان على مفهوم آخر للوجودية مع كبريال مرسال و « Heidegger » ان يهديني الى ان الحرية التي اتوخى هي تخطي مرحلة الرفض العقيمة الى ملء التزام ، رائدها المجاوبة بسخاء ، على نداءات الله

والعالم والآخرين ومتطلباتهم.

نكتشف الحرية في عرف كبريال مرسال، في حادثتين جوهريتين في حياتنا: هما الامانة للعهود والقدرة على الاعجاب.

فكيف يمكن من ليس حراً ان يبرّ بوعده؟ اذ الامانة تفرض ضمناً امكانية الخيانة، وتقتضي ان نكون لمن وعدنا حضوراً متصلاً وجواباً دائماً يتتبع تقلب اوضاعه في خلق ذات دائم، ينفي الجمود والمواقف المحدودة النهائية. كالام لا تخون ابنها بل تتابع منعرجات سيره متشبثة ببراءته واثقة بامكانياته حتى ولو اعتلى المشنقة. ولذلك فكلما بررت بوعدي خلقت ذاتي انساناً حراً.

الحدث الثاني هو حدث الاعجاب الذي يتطلب مني خروجاً من دائرة انانيتي، وتحرراً من مركبات النقص فيّ، كي اتمكن من الاقرار بفضائل الغير البينة وبتفوقهم علي بتواضع وفرح.

فالحرية اذاً مبدأ اعتناق وحضور دائم وخلق. اعتنق جسدي فازيد فعاليته ووحدته مع الروح وبواسطته اخلق صلة حيوية بيني وبين الباقي من

العالم. اتحد بالآخرين بالمحبة فأولد لذاتي باكتشافي اياهم وانشىء علاقة جديدة بيني وبينهم فانا وانت نؤلف «نحن». واعتنق المبادىء والشرائع فاجسدها فيّ ولا اعود اشعر بعبء انقضاضها علي من الخارج. وأهبّ لملاقاة الله بالايمان، فاخلق بيني وبينه مجالات ومجالات للاخذ والرد.

وكذلك فلسفة الشخصية فانها افهمتني معنى الحرية بكل نواحيها، عمقت مفاهيمي بمعنى الحرية فحدثني امانويل مونيه عن الحرية «قيد شروط» مقراً انها مرتبطة بالتاريخ والمجتمع مسايرة امتدادات الشخصية وابعادها خاضعة لوضعها في الحياة ومرتبطة بكل روابطها. فاذا الحرية حب للواقع، ولقاء له، والتصاق به يحملني ان استسيغ مقتضياته بل ان اعطيه ذاتي وكأنني افتديه من التفاهة.

رابعاً – ايماني بالحرية (حركة ترقى بالانسان الى فوق)

فمن خلال كل هذه التجارب والمفاهيم انا اومن بالحرية لاني أثق بقدرتها على تطوير ذاتي بدعوتها المتواصلة لتخطي حدود الأنا، في صيرورة لا نهاية لها. وهذه الدعوة لا يمكن ان تصيب إلا الانسان المسؤول الذي يمكنه ان يجاوب.

« الايمان هو الايقان بالمرجوات » حسب تحديد القديس بولس يستكشفها ويتلمسها ، وهو يعيشها . فالحرية ، قابلية تطور ، قوامها البقاء في حيز الممكنات ، في سير متواصل تلاقي دونه حتفها .

ان الحرية تدعوني، واكثر ما تدعوني ، للتعرف الى الحقيقة بتهذيب عقلي وصقله ، وتوسيع مداركه لا بعملية حشد وتراكم معلومات ، بل باستساغتها واستملاكها وتحويلها الى ذاتي، قال الرب : « تعرفون الحق والحق يحرركم » ، وفي ذلك يعني السيد المسيح ان الانسان يبلغ ذروة الحرية حينما يستطيع ان يرى الحق بذاته ويقرّبه لان القبول بالحق دليل على ان الانسان كسر دائرة ذاته منفتحاً للغير على ما هو .

أتعرّف الى الحق واعلِّمه للآخرين باعطائهم متجهات ثقافة شاملة ورغبة في البقاء طلّاب معرفة مدى العمر .

وتُهيب بي الحرية لتقوية ارادتي بتمرينها على الجرأة في رفض المغريات والامتثال لمتطلبات واجبي والدأب على خلق الانسجام في تصرفاتي .

ولكن المعرفة مهما عمقت والقدرة مهما اشتدت يمكنهما ان يتجندا لخدمة المصالح الشخصية وحب

السيطرة والأثرة فيصبحا آنذاك وسيلة للاستعباد ليس إلّا. « فالمحبة وحدها لانها وحدها تأخذ الكائنات في اعماقها وتجمعها قادرة ان تكمّل الكائنات ككائنات اي بأن توّحدها وتجدد خلقها » (تيلار دي شردان). فالاجواء المُحبّة الغامرة، تدعوني الى الحرية، قبل كل شيء، لأن المحبة وحدها يمكنها ان تدخلني ملكوت الوحدة حيث الشريعة لا معنى لها ولا منفعة.

قال القديس اغوسطينوس: « أحبب واصنع ما تشاء » اي أحبب الله والآخرين وذاتك — لان ذاتنا هي هذا المعربد الذي هو آخر من نفكِر بسدل وشاح الرحمة والمحبة عليه — تصالَح مع كل هؤلاء فتزولَ الحواجز وتلتقي الارادة والعمل في حرية كاملة حيث نعمل ما نحب ونحب ما نعمل. لكن هذا الهدف يظل قمة نتطلع اليها من بعيد بعنق سامدة. وهكذا فحرية اليوم ترّجح حرية الغد تنبيء بحرية بعد غد، وتقيّدها انما عن طوعية وانسجام.

ولذلك فان الايمان بالحرية مرتبط بالرجاء يضفي على الزمن قيمة لا حد لها. لان التطور يفترض احترام الزمن والثقة به. والمصالحة في داخلنا رهينة

الصبر الجميل الذي يغالب اليأس والقنوط، وينتظر نضوج الثمرة في اوانها بثقة وثبات دون تشنج أعصاب واستئثار ومحاولة استباق الامور، هذه كلها من شيم الأمل الآني والضيّق المدى. فالرجاء يحوّل الزمان لا الى آونة امتحانٍ فحسب بل الى مجالاتٍ أعطيت لنا لنحقق حريتنا ونشارك الخالق في انجازاته. فالرجاء وان فتح آفاق المستقبل أمامنا لا ينسى الماضي بل يتبنّاه ويعيشهما اي الماضي والمستقبل في حاضر دائم يبتدىء معه كل شيء من جديد في حضور دائم متوثب تنضم اليه «حتى القرون الغابرة الى بداية الخليقة».

ولحريتي جسم هو علاوة عن جسمي الفردي جسم المجتمع الانساني: الجغرافي والاقتصادي. هذا الجسم هو امتدد لحريتي لا يمكنها ان تنطلق الا بانطلاقته.

ولكن الخليقة كلها بجسمها اللامحدود لا تزال «تئن» لا كمريض يشرف على الموت بل كحامل (رومية ٨: ٢٢) «تتمخض» بالحياة وامل الوجود الافضل ملتمسها الانعتاق رغم التطورات المذهلة التي حققها الانسان وكأنها توارث وتحولات بل قفزات

جبارة في شتى الميادين.

فالحرية لا تزال سجينة في جسدي تدعوني لاعتقه من رتابة العادات الآلية التي توشك ان تهوي به الى مستوى الاشياء وتخنق فيه «باكورة الروح المتألقة» (روميه ٨ : ٢٣). الحرية تسترحمني لانزع عن جسدي وصمة الرذل التي ألصقت به منذ الخطيئة الاصلية، هذه التي تضاءل هولها عندما تنازل الرب وقال عن جبلتنا : «هذا هو جسدي».

الحرية سجينة في وهق الآلات الحديثة واغرائها، احررها بالافادة منها بطريقة موزونة تعرف ان تأخذ وان تتخلّى، وبروحنتها وبوسمها بطابع انساني بجعلها في خدمة المجتمع أداة لاشاعة المحبة والسلام، ونشر انوار المعرفة لا ثقلًا يسحق الانسان بعتوه ويدمر معنوياته.

الحرية سجينة في العالم حيث العبودية والاستعمار والحروب والتطاحن على تفاهات هذه الدنيا. فالحرية تحضني ان أدعو اخوتي بالانسانية، اقله في محيطي، كي لا يطمسوا معالم الروح ووسم الله فيهم بل يسعوا لتأليف مجتمع بشري يسهل فيه العيش والنمو، لا مجتمع يضيق فيه التنفس وتختنق الاصوات.

فأنا أومن بالحرية لانها أعطيت لي للخدمة : خدمة

اهدافي وخدمة الآخرين . فعلى قدر ما أؤدي خدمة مجانية على قدر ما أقتني الحرية ، اذ حيث تدخل المصلحة تتضاءل قوة التحرر .

ولكن حريتي الى هذا الحد تبقى على مستوى الانسان منغلقة على نفسها راكنة الى قوتها في عالم جعلته ضيقاً ، كما وهي قصيرة المدى ، لا أبعاد لها الى ما وراء المنظور . فما معنى وجودها وما معنى تطور العالم ، ان لم يكن متجهاً نحو غاية أسمى هي الله .

ب) حركة تنحدر بالله الى الانسان

فانا أومن بالحرية من خلال صلواتي حيث اسمع نداء الله ونداء كنيسته يدعوانني لاقتناء الحرية الكاملة حرية أبناء الله وذلك بالتضحية الكاملة والعطاء الكامل .

« ان الله كما يقول القديس بولس ، قد اختارنا من قبل انشاء العالم لنكون قديسين وبغير عيب امامه بالمحبة ، سابقاً محدداً ايانا للتبني له بيسوع المسيح » (أفسس ١ : ٤ ـ ٦) .

دعاني الله بالمعمودية الى القداسة والتبني اللذين هما هدف الحرية النهائي وانتظر جوابي الحر عند بلوغي سن الرشد . واذا به يشتد الحاحه ، متطلباً مني التزاماً

كاملًا لقضاياه، باعتناق طريق التحرر الكامل في الطاعة والعفة والفقر الاختياري حباً به.

دعاني الله الى الرهبنة، بنعمة مجانية هاجمت وجداني بهاجمة الحب الاول، مستبدة بي دون ان تستبد، مغتصبة إياي دون ان تغتصب، فوجلت من التعرض لها، وهالني حمل الصليب فرددت مراراً: «يا ابتِ ان كان مستطاعاً فلتعبر عني هذه الكأس». وما فتئت بين اقدام واحجام، في صراع بل في دوار اشبه بالذي يعتري متسلقي جبال الألب، دوار اشد وطأة من صراع المادة والروح، الى ان تجلت في جو الصلاة والتأمل حوافز الدعوة، وتبلورت في اشعاع باهر أولاها قوة افحامي بل استملاكي الى ما لا رجعة عنه. والآن هب الماضي امكنه ان يعود وكان لي ان أجدد الاختيار. فلما كنت اتردد من المجاهرة بعد هذه السلسلة المتواصلة من العيش الحر المخدوم، سأعيد الكرة من جديد لو أعطي لي ان أعيد.

« Je le ferais encore si j'avais à le faire ».

بقبولي دعوة الله أصبحت في حوزته بعد ان انتقلت من عبودية العالم الى عبودية اخرى هي

«عبودية البر والقداسة» التي هي في الواقع الحرية الحقة في ارتداد هو حصيلة سنين طويلة من القولبة الخفية، فقه سرها بيغي « Péguy » الشاعر المؤمن، فقال مخاطباً جاندارك :

« عندما يدعو الله نفساً يا ابنتي، يلتزمها ويشتغلها فما باليد حيلة، لا بد من الاستسلام، فلتمشي ولا مهرب ولا تملص من قبضة الله القديرة. فعمل الله نار آكلة كيف لمركباتنا المسكينة ان تعارضه»؟.

وكأني بالله في عمل الخلق، هذا يجبل آدم من جديد، معرضاً نفسه للندم على ما فعل. لأن هذه الجبلة لسوء استعمال حريتها، لن تظل طويلاً على مستوى متطلبات الخالق. وهو يعيد الكرة كل يوم مكرراً النداء برحمة واناة لا توصف، داعياً اياها لقيامة أفضل، في حرية اكمل وهي تحاول ان تجيب. فعلى نعمته القديرة واجتياح روحه القدوس المحيي ذلك الذي رف على وجه المياه في بدء الخليقة يتوقف كل مرة بعثها من الموت، ومداواة جراحها الثخينة. علها تتوصل يوماً الى سامفونية السلام في داخلها في ابدية محبة وعطاء.

راهبة؟ أني لم اصرها بعد بالتمام، بل لا أزال

على الطريق تسهل لي مسيرتي اتجاهات الكنيسة بعد مجمع الحرية الحالي، الذي يلح علي بان اكون للعالم حضوراً دائماً «كالخميرة في العجين» يفجرها وتفجره في حيوية فعالة هي امتداد لحياة الله فينا.

خلاصـــة

لماذا أومن بالحرية: أومن بها لاني على هديها خضت المغامرة الكبرى في تقرير مصيري. أومن بها لانها محاولة انعتاق من كل ما يشكل ثقلاً على حياتي، من معطيات خارجية وداخلية، وهذا الانعتاق يهدف الى تكميل ذاتي طبقاً لصورة مثالية، لذاتية تصورت كاملة امامي في المستقبل والحرية في الاصل هي الفعل الحر الذي تضعه الذات بانطلاق من ذاتها. فذاتي هي التي تقرر وهي التي تختار وهي التي تحقق ما قد قررت، معتمدة على القوى الكامنة في الجسد. فحريتي تستخدم الجسد وقواه كما ان الجسد بدوره قد يحول دون تحقيقها، وفي كل ذلك يجب علي ان أقر بتواضع ان حريتي حرية بشرية ومخلوقة حرية مقيدة ومشروطة، اذ ترتبط هذه الحرية بضرورات خارجة عنها. ولا تقوم فعلاً الا باستساغة هـذه المعطيات وتجاوزها.

وهذه الحرية لن تتحقق لي، الا بقدر ما انفتح على نعمة الفداء، فالاله جاء فادياً اي محرراً، وقد اراد ان يحررنا من قيود القوى العمياء المسيطرة على البشر، من أسر مزاجنا، وحياتنا، والدوافع الغامضة الكامنة فينا، اذ كشف لنا عن ان حياتنا مركزة في تصميم الهي، يشمل كل واحد منا، بل يشمل العالم باسره. وهذا الفداء لن ننعم به الا بقدر ما نقتني حرية ابناء الله، الذين لم يقبلوا روح العبودية، بل الروح الذي يؤهلهم لان يصرخوا «ايها الآب ابانا»

وبذلك يكون الفداء قد أعطى للانسان، امكانية تسيير حياته، لا بالخضوع لقوانين مبهمة خارجية، لكن بالانطلاق من علاقات شخصية، علاقات محبة، بين الانسان والله، وبين الانسان واخيه الانسان. هذه المحبة التي بها يتوحد كل شيء بل يتجدد ويخلق.

اجل آمنت بالحرية، لاني آمنت بالمحبة. المحبة التي هي الله.

الكنيسة سر المسيح

لسيادة المطران غرغوار حداد

مقدمــة

الكنيسة ، سر ، المسيح : كلمات ثلاث لا صدى لها في وجدان انسان القرن العشرين ، على ما يظهر ، وعلى ما يقال .

فالكنيسة ، مؤسسة عمرها ألف وتسعمائة عام ، كان لها شأنها من قديم ، لاسيما في القرون الوسطى ، عندما كانت تسيّر العالم الغربي وتعطيه شرائعه ونظمه ومؤسساته ، ثم اخذ يضمحل تأثيرها ، عندما اخذ الانسان ينتقد المؤسسات القديمة ، وعندما اخذت الشعوب تتحرر من كل استعمار سيــاسي واقتصادي وثقافي ... بل وروحي .

والمسيح ، رجل ، كان ولا شك من اهم رجالات العالم ، كان مفكراً كبيراً وقائداً عظيماً وقد اثّرت ديانته على سير التاريخ من اكثر من ناحية . ولكن تيارات العصر الحديثة اخذت تحل محله شيئاً فشيئاً ، بل اخذت تحاربه ، وتحارب افكاره السلمية التي اصبحت بنظر بعض علماء الاقتصاد والاجتماع العائق الاكبر لتطور البشرية وتحررها من عبودياتها .

والسر ، كلمة لا يطيقها العلماء والفلاسفة والمثقفون انفسهم . فعقل الانسان لا يقبل ان يكون هناك سر مغلق دونه . لهذا عندما تقدم ديانة نفسها بانها مجموعة اسرار ، فمنذ اللحظة الاولى يقول هذا العقل لها : « لا » ، دون ان يحاول تفهم ما تريد

ان تعنيه له هذه الديانة !

كلمات ثلاث تنافي حساسية ابناء القرن العشرين وكأنها تضاد مقتضيات عقلهم، كلمة كلمة، فكيف اذا تجمعت الثلاث معاً ؟

« الكنيسة سر المسيح » ! كأني بفكري اليوم يقولون : المسيح، لا يهمنا امره، والكنيسة كذلك. فكيف يهمنا علاقة هذه الكنيسة بهذا المسيح ؟ بل كيف نقبل ان يهمنا ذلك عندما تقولون لنا ان هذه العلاقة هي سر ؟ !

***

ولكن هناك الفان وخمسمائة من اساقفة العالم يحيط بهم خمسمائة من اكبر ادمغة الفلاسفة واللاهوتيين العصريين تحاوروا معاً مدة سبع سنوات، في هذا الموضوع ومواضيع اخرى منبثقة عنه. وانتهوا باقرار وثيقة اعلنوها لجميع ابناء قرن العشرين وكلهم ثقة بان هذا الموضوع لا يزال يهمهم، بل انه يجب ان يحتل مقاماً اولياً في اهتمامهم، بالرغم من ظاهره.

وبالفعل، لقد شغل المجمع المسكوني بهذا الموضوع وبغيره لا فقط الكاثوليك، بل المؤمنين المسيحيين على اختلاف مذاهبهم، بل المؤمنين من غير الديانات، بل جميع بني البشر مؤمنين وغير مؤمنين. لا نريد شاهداً على ذلك الا اهتمام الصحافة والراديو والتلفزيون والسينما، التي خصصت له الكثير من اعمدتها واذاعاتها واشرطتها. وهي عادة لا تأبه الا لما يهم القسم الكبير من الرأي العام العالمي ...

***

لهذا، اذا ما حاولنا نحن المسيحيين ان نتعمق في فهم ما اراد تعليمه المجمع المسكوني في هذا الصدد، لا نكون فقط قد اجبنا لداعي الطاعة لرؤسائنا الروحيين، ولا نكون فقط

جارينا الرأي العام العالمي ... ولكن ، وهذا الاهم ، نكون قد برهنّا لانفسنا جدية ما يقوله المجمع وجدته ، ونكون قد استجبنا نداء العالم الخفي ، الذي ينتظر منا نحن المسيحيين ، نحن المحسوبة علينا هذه الكنيسة ، ان نعيش عملياً ، ما يقوله نص المجمع النظري ، والا نكون قد خيبنا املاً جديداً اثاره المجمع المسكوني في العالم .

فلنحاول اذن ان نتعمق في تعليم المجمع عن « الكنيسة سر المسيح » لنرى ان هذه الكلمات الثلاث تهمنا ، ونكون ، نحن ، الدليل بانها تهم ابناء القرن العشرين .

١ ــ السر

ولنبدأ بلفظة « سر » .

السر ليس الامر الخفي ، المخفي .

والسر ليس الامر الذي يفوق العقل ، ومن ثم لا يطلب من العقل فهمه بل الاذعان له بطريقة عمياء .

والسر ، بالاحرى ليس ما يناقض العقل ، فتضطر الكنيسة ان تخضعنا له بواسطة الايمان قائلة : اذا كان المسيح علمنا ذلك ، والمسيح لا يمكن ان يغش ولا ان يغلط في تعليمه ، فمن ثم ، ولو بدا الامر في تناقض ظاهر ، فما ذلك الا سطحياً . ويجب ان نتكل على المسيح ولا نحاول ان نفهم ، بل ان نؤمن !

لا ! فكل ذلك نواح سلبية من مفهوم السر ، والاسرار كثيرة ومهمة في تعليم المسيح . فمن المستحيل ان يكون قد اعطانا اموراً سلبية لنؤمن بها . لاسيا ان « كلمته حياة » (يو ٦ : ٦٣) كما قال لنا ، كلمته حياتية ، اي تلج الى حياتنا اليومية لنتفاعل معها .

لا بد اذن ان يكون للسر في المسيحية معان ايجابية . فما هي ؟

السر والحياة الطبيعية

لو حللنا معاني هذه اللفظة ، حتى خارج العقيدة المسيحية ، بل كل عقيدة ، لوجدنا لها هذه المعاني الايجابية .

« فكلمة السر » مثلاً هي الكلمة المتفق عليها بين اناس لهم هدف مشترك ، يريدون ان يخفوه عن غيرهم . ولكنهم هم يعرفونه ويعيشون في سبيله . وكلمة السر هي التي تجعلهم يتعارفون ويتعاونون .

« وسر القضية » يعني ، لا ما يفوق الادراك فيها ، بل جوهرها الداخلي الذي يفوق الفهم السطحي فقط ، والذي يتطلب جهد تفكير اكبر من العادة .

« وسر الموسيقى » او « سر الشعر » معناه الامر الذي يعطي الجمال لتلك الموسيقى او ذاك الشعر ولا يمكن التعبير عنه بالكلمات العادية وبالمنطق العقلاني ، فقط ، ولكن يمكن التأثر به والشعور بجماله ... ومن ثم معرفته معرفة كيانية عميقة تتجاوز المعرفة السطحية.

« وسر الشخصية » معناه ما يكوّن هذه الشخصية في عمقها ، ما وراء ظواهرها . ومن ثم ما لا يمكن لشخص آخر معرفته اذا بقيت العلاقات خارجية ، وتمكن معرفته اذا تمكنت اواصر العلاقات بين الشخصين ، بواسطة الصداقة او الهدف المشترك .

« وسر المحبة » الموجودة بين شخصين هو الغنى الانساني الكبير الذي يصل بينهما ، وقد يكون خفياً عن اعين الناظرين ، بينما هو حياة كليهما وقد يحاولان التعبير عنه بالشعر او الموسيقى ، دون الاستطاعة ، او دون الاكتفاء ، او دون الرضى عن اي

تعبير ، لان حياة الحب التي يعيشانها اغنى من كل تعبير مهما سما وتعدد .

اذن نحن البشر نستعمل كلمة « سر » خارجاً عن كل ديانة ، في حياتنا اليومية العادية ، لا بمعنى الامر الخفي او الذي يفوق الادراك ، بقدر ما نستعملها عندما يكون هناك غنى في الكيان او في الوجود او في العلاقة او في المعنى :

- يفوق الادراك السطحي العادي .
- او يفوق المعرفة العقلانية المنطقية البسيطة .
- او يفوق التعبير الكامل له .

ومن ثم فموقف الانسان تجاه سر قضية ما ، او سر الشعر والموسيقى ، او سر الشخصية ، او سر المحبة ، او ما شابه من الاسرار الانسانية ، ليس موقف التسليم لواقع مغلق او لامر يفوق الانسان ، بل موقف صراع حياتي عميق ، يتطلب استعمال كل الطاقات الانسانية ، لا العقلانية منها وحسب ، **لاجل الولوج اكثر فاكثر الى غني السر بكامله .**

ويمكننا ان نستخلص من هذا التحليل السريع ان الانسان العادي والمفكر والفيلسوف لا ينتقد ولا يحارب « السر » في معانيه الانسانية المذكورة ، انما بالعكس يعتبره علامة من علامات الامور التي تهمه اكثر من غيرها ، بل التي يعتبرها اساسية في حياته ، كالفن والشخصية والصداقة والحب ...

السر والمسيحية

اما المسيحية فانها استلمت لفظة « سر » لنوعين من الحقائق الايمانية .

نوع اول فيه : سر الثالوث ، وسر التجسد ، وسر الفداء ، وسر تفاعل الحرية والنعمة ...

ونوع ثان فيه الاسرار السبعة : المعمودية والتثبيت والاعتراف والافخارستيا والزواج والكهنوت ومسحة المرضى .

ويمكننا سلفاً التأكيد بان هذه الاسرار تهم الانسان العادي كالمفكر والفيلسوف لانها ليست فقط اساسية ، بل ايضاً مصيرية . فان يكون الله واحداً في ثلاثة اشخاص . وان يكون احد الثلاثة قد تجسد ، ثم مات فداء عنا . وان تكون هناك حرية وتفاعل بين حرية الله وحرية الانسان في النعمة والاسرار السبعة ... كل ذلك مما يغير وجه التاريخ للانسان الفرد وللانسانية جمعاء .

كما يمكننا الاعلان بان اطلاق لفظة سر على كل من هذه الاسرار ، ليس في المسيحية تهرباً من مستلزمات الفهم والادراك ، بل بالعكس هو دعوة دائمة للتعمق اكثر فاكثر في ما تريد هذه الاسرار ان تعطيه للانسان والانسانية من حق وحياة . وليس تجاوزاً للعقل الانساني ، بل هو تجاوز « للعقلانية » السطحية التي تكتفي من طاقات العقل بالبعض المزيل منها ، مستقلاً عن الطاقات الاخرى ومنعزلاً عن الوحدة الانسانية المتكاملة « الاجزاء الاعضاء » .

فاذا توقفنا قليلاً لدى سر الثالوث مثلاً ، وجب علينا الاستنتاج مما سبق ، ان « السر » في سر الثالوث ليس ان يؤلف ثلاثة اشخاص الهاً واحداً ، ويكون كل منهم هذا الاله لا ثلثاً منه ، او صفة ، او وجهة نظر ، او تسمية مختلفة . بل السر في ان نتوغل الى داخل هاتين الحقيقتين معاً وان نكشف :

– غنى كل منهما على حدة .

– وغنى تعايش الاثنتين وتفاعلهما .

– وغنى تطبيق ذلك كله على كيان الانسان ووجوده ومصيره .

وهذا التوغل والاكتشاف لا يتم على صعيد المسائل الحسابية والعلاقات المنطقية السطحية، حيث يتلهى ويقف اغلبية الناس، فيلومون «السر» بـــدل ان يلوموا خطأهم المنهجي في التوغل والاكتشاف! بل هو يتم على المستوى الاعمق من كل انسان، مستوى الخبرة الشخصية، مستوى العلاقات الشخصية، حيث يمكن ان تولد «المعرفة ـ المحبة»، لا فقط المعرفة المنطقية او الحسابية.

وهكذا في جميع اسرار النوع الاول التي تريد كشف جوهر الله في غناه الثلاثي وتجسد احد الثلاثة.

واذا توقفنا على احد الاسرار السبعة، مثلاً الافخارستيا، اي سر وجود المسيح بلاهوته وناسوته الكاملين في الخبز والخمر، بعد كلام التقديس، وجب علينا الاستنتاج ان السر هنا ليس في ان المسيح هو «الخفي الظاهر» تحت شكلي الخبز والخمر، وليس عجيبة هذا الوجود اللاحسي. بل السر في العلاقة الشخصية بين المسيح والذي يأكل جسده ودمه، السر في اكتشاف هذه العلاقة واستيعابها والتعمق بها يوماً بعد يوم والوصول الى ابعد مداها الوحدوي الذي عبر عنه المسيح قائلاً:

«من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيّ وانا فيه» (يو ٦ : ٥٧).

وهكذا كل سر من الاسرار السبعة يصبح علامة حسية ترمز الى حقيقة وجودية وواقع روحي حياتي، حقيقة وجود المسيح عبر العلامة الحسية وواقع الاتصال به والاتحاد بـــه من قبل الانسان على المستوى الشخصاني الحر الملتزم.

ويمكننا القول، من ثم، ان الذي يريد حصر مفهوم الاسرار المسيحية على نوعيها في المنهج العقلاني المنطقي، ليس من المنهج ولا العقلانية ولا المنطق بشيء! وان المنطق هنا يتطلب تخطي المنطق... الى الحياة بكل طاقاتها المعرفية الاختبارية بل الى الاتحاد بموضوع المعرفة ذاته.

وليس ما نقوله هنا استنتاجاً فكرياً وحسب ، بل هو تعليم الانجيل نفسه عن علاقة الاسرار بالمعرفة .

فقد قال المسيح لتلاميذه بعد تعليمه بالامثلة :

« انتم قد اعطيتم معرفة اسرار ملكوت السموات » (متى ١٣: ١١).

ويقول يوحنا في انجيله :

« الله لم يره احد قط .

الابن الوحيد الذي في حضن الآب هو اخبر » (يو ١ : ١٨) .

اذن السر الاولي ، الاساسي لنا نحن البشر ، هو الله .

والله سر لانه لم يره احد قط .

والله سر غير مجهول ، ولا يريد ان يبقى مجهولاً .

فهناك من يعرفه معرفة تامة كاملة : « الابن الذي في حضن الآب » . وليس من يعرف الآب الا الابن ...

... ومن اراد الابن ان يكشف له ! (متى ١١ : ٢٧) .

ولهذا جاء الابن الى العالم ، لا ليبقي سر الله مكتوماً ، بل ليكشفه الى العالم ، لهذا ، فالابن « اخبر » ، اخبرنا بكل ما سمعه من الآب .

« وهو ينطق بما يعلم ويشهد بما رأى ...

اذ لم يصعد احد الى السماء الا الذي نزل من السماء ، ابن البشر الذي هو في السماء (يو ٣ : ١١ و ١٣) .

والابن لم يكشف للناس « سر الله » بما نطق وشهد فقط ، بل بما كان ، بما هو : اذ هو صورة الله غير المنظور .

فالله الذي لم يره احد قط اصبح منظوراً بالابن .

« من رآني فقد رأى الآب » (يو ١٤ : ٩) .

سر الله المغلق دون بشر اصبح اذن مكشوفاً لهم بواسطة الابن وفيه شخصياً .

ولكن هل الابن شرح منطقي لله ، يكفي ان نعرف ما قال وما عمل لكي نستوعب السر ؟

لا ! الابن ليس شرحاً للآب . بل هو بدوره سر الآب .

وبرهان ذلك ان التلاميذ بقوا ثلاثة سنين يرون الابن دون ان يروا الآب ، ودون ان يعرفوا لا الابن ولا الآب !

انا معكم كل هذا الزمان ولم تعرفوني !

لو كنتم تعرفوني لعرفتم ابي ايضاً (يو ١٤ : ٩ و ٧) .

السر الاولي الاساسي هو سر الله . وسره انه آب ، انه محبة ، انه ثالوث .

والسر الثاني المنبثق عنه هو سر الابن المتجسد ليعلن الآب . في هذين السرين المتداخلين المتحدين توجد لا الخفايا الفائقة العقل ، بل كل كنوز الحكمة والعلم . هذا ما يقوله لنا بولس الرسول اذ يكلمنا عن « غنى فهم ، كامل اليقين ، يكون في **معرفة سر الله الآب والمسيح** ، المكنون فيه جميع كنوز الحكمة والمعرفة » (كو ٢ : ٢ و ٣) .

ويقول انه صار « خادماً ليتم **تبشير** كلمة الله ، التي هي السر المكتوم منذ الدهور والاجيال ، وقد **اعلن الآن** لقديسيه ... **نبشر به معلمين** كل انسان بكل **حكمة** ، لكي نجعل كل انسان كاملاً في المسيح » (كو ١ : ٢٦ و ٢٧) .

وفي محل آخر انه « اعطي نعمة **التبشير** في الامم **بغنى** المسيح الذي **لا يستقصى** ، ويوضح للجميع ما **تدبير السر** الذي كان منذ

الدهور مكتوماً في الله ، لتعلم الآن حكمة الله المتنوعة » (اف ٣ : ٨ ، ١٠) .

ويقول ايضاً : « اني بوحي اعلمت السر ... فتستطيعون اذا قرأتم ان تعرفوا خبرتي في سر المسيح ، الذي لم يعلم عند بني البشر في اجيال اخرى كما اعلن الآن بالروح لرسله القديسين وانبيائه » (اف ٣ : ٢ – ٥) .

السر الاولي ، الله الآب ، الله المحبة ، الله الثالوث .

هذا السر معلن في الابن المتجسد ، في المسيح .

معلن فيه « جملة » : في كيانه وشخصه .

ومعلن فيه تفصيلًا : في كلامه واعماله .

الرسل اعطوا هذه المهمة : ان يعلموا السر ويبشروا به ، ويعلموا كل انسان بكل حكمة ، ان يعلنوا على الملأ ما كان مكتوماً .

والمهم في هذا التعليم لا الكلام بقدر ما هو « الخبرة في سر المسيح » ، الحياة الشخصية « واختبار قوة قيامته » .

وكما ان المسيح ليس شرحاً للآب ، بل هو سر الآب المعلن بحياة الابن ، كذلك تبشير الرسل ، ليس شرحاً لسر الآب والمسيح ، بل « حياة في المسيح » اولاً ، « وشهادة للمسيح » بهذه الحياة .

فسر الله معلن في سر المسيح .

وسر المسيح معلن في سر المسيحي فرداً وجماعة .

وهذه الجماعة العائشة سر المسيح هي الكنيسة .

لهذا فسر المسيح معلن في الكنيسة .

ولكن قبل ان نصل الى تفهم « الكنيسة سر المسيح » ، لنتوقف قليلًا لدى المسيح نفسه . فمن هو المسيح ؟

٢ ـ المسيح

المسيح هو الانسان يسوع ، عاش في فلسطين ٣٣ عاماً ، منذ الف وتسعمائة سنة ونيف . هو المفكر الكبير ، الفيلسوف الاعظم في كل ما يهم للانسانية معرفته .

هو الذي « ما تكلم انسان مثله قط » (يو ٧ : ٤٦) .

هو الذي مرّ بالارض يصنع الخير .

هو « الذي يعرف ما في الانسان » .

هو الذي اعطى البشرية شريعة المحبة ، التي كانت الثورة الكبرى بين ثورات البشرية ولما ينته مفعولها بعد ، بل لا يزال في اول الطريق .

هو الذي اسس جماعة اخذت تنمو وتنمو ، حتى وصلت بذورها الى المسكونة جمعاء ، ولم تقو عليها سلطات هذا العالم بالرغم من جميع الاضطهادات .

اجل هذا هو المسيح ...

ولكنه ليس هذا فقط .

ليس الرجل من الماضي ، المفكر والفيلسوف والمؤسس والمشترع وقائد الثورة ... وحسب . مهما كانت قيمة كل ذلك ... ليس رجلاً تاريخياً ، مرّ مع التاريخ وبقي اثره .

« فالمسيح هو هو امس واليوم والى الابد » .

• هو اليوم .

هو اليوم حي بالحياة الالهية والحياة الانسانية معاً .

هو اليوم ابن الله المتحد مع الآب والروح ، الواحد بالجوهر

معهما ، منذ الازل والى الابد .

وهو اليوم ابن الانسان المتحد بالانسانية ، الواحد بالجوهر معها ، منذ تجسده والى الابد .

هو « الاله الانسان » المعاصر كل العصور والمواكب كل الجماعات والمرافق كل الافراد لا من الخارج ، بل من الصميم الصميم ، وهذا معنى انه متحد بالانسانية .

• هو المفكر العصري الذي لا يزال يعلم البشرية ما تحتاج اليه جيلاً بعد جيل .

وهو قائد الثورة في كل جيل ، ما جاء « ليلقي الا سيفاً » (متى ١٠ : ٣٤) .

« وناراً لا يريد الا اندلاعها » في الارض كلها (لو ١٢ : ٤٩) . ولكن الثورة والسيف والنار على الصعيد الكياني الروحي .

• هو محور تاريخ البشرية : يقال : قبل المسيح وبعد المسيح . كل ما كان قبل تهيئته له . وكل ما بعده انطلاق منه .

وهو عروس كل نفس عطشى للحب . واية نفس ليست عطشى ؟ !

• هو الطريق والنور والحق والباب .

هو الحياة وخبز الحياة ، والماء الحي .

هو الراعي وحمل الله .

هو الكرمة والناس الاغصان . هو الرأس والناس الاعضاء .

هو الالف والياء ، الاول والآخر .

• « هو الذي به خلق جميع ما في السموات وعلى الارض ... واليه خلق الجميع ، وهو قبل الجميع وبه يثبت الجميع ... وفيه رضي الآب ان يحل الملء كله » (كو ١ : ١٦ — ١٩) .

فهو الكيان النهائي الذي « يجمع ابناء الله المتفرقين الى واحد » (يو ١١ : ٥٢) .

***

اذا كان حقاً كل ما قلناه عن المسيح وما قاله عن نفسه ... فذلك يعني ان المسيح يهم البشرية اكثر من اي شخص ، وما حدث له اكثر من اي حدث ، وما علمه اكثر من اي تعليم ، وما اسسه اكثر من اي مؤسسة .

٣ ـ الكنيسة سر المسيح

ولهذا عندما نقول ان « الكنيسة سر المسيح » ، بدلاً من ان نفكر بالمؤسسة الهرمة او ان نجد في الكلمات الثلاث ما ينافي حساسيتنا نحن ابناء القرن العشرين ويناقض مقتضيات عقلنا ، يجب ، بالعكس ، ان نفكر في انفسنا هكذا :

– بما ان المسيح يهمنا امره اكثر من اي امر آخر .

– وبما ان الكنيسة لها علاقة به .

– وبما ان هذه العلاقة هي علاقة سر .

ـ لا بد ان تكون الكنيسة ، كسر المسيح ، قضية حيوية لنا ، ونحن عن ذلك غافلون !

ولما كان المجمع المسكوني قد افرد لهذه القضية اهم وثائقه ، سنحاول ان نستخلص ، من الوثيقة المجمعية ذاتها ، ما يجعلنا نفهم معنى هذا السر ، على اعمق صعيد ممكن .

أ ـ الكنيسة سر المسيح بجملتها

التشابيه والامثال

نجد في الفصل الاول هذه التشابيه والتحديدات للكنيسة ،

استقاها المجمع من الكتاب المقدس (والارقام تشير الى مقاطع الوثيقة المجمعية) .

« الكنيسة هي **ملكوت** المسيح المستتب في السر ، تنمو في العالم نمواً ظاهراً بقوة الله (٣) .

« والكنيسة هي **شعب** موحد في وحدة الآب والابن والروح القدس » (٤) .

« والكنيسة **موكلة برسالة اعلان ملكوت** الله والمسيح ونشره بين الامم وكانت هي **زرع** هذا الملكوت وبدءه » (٥) .

« والكنيسة هي **الحظيرة** التي لا يدخل اليها الا من باب واحد هو المسيح » .

وهي **الرعية** التي بشر الله بانه سيكون راعيها ، والتي لا يزال يهدي خرافها ويرعاها ، والكنيسة هي **الارض** التي يزرعها الله ، او **حقله** .

والكنيسة هي **بناء** الله ... **وبيت** الله ، الذي تقيم فيه عيلته **ومسكن** الله في الروح **والمدينة** المقدسة واورشليم الجديدة ... واورشليم العليا .

وهي **امنا**

وهي **العروس** النقية للحمل النقي ... اراد ان تتحد به وتخضع له بالحب والامانة (٦) .

« وهي **الجسد** ... ونحن جميعنا اعضاء في هذا الجسد واعضاء بعضنا لبعض ... والرأس المسيح » (٧) .

وهي **الجماعة** القائمة على الايمان والرجاء والمحبة .

وهي **الهيكل المنظور** ، يفيض من خلاله على الجميع الحق والنعمة .

وهي **الجماعة المنظورة والشركة الروحية** ، كائناً واحداً مركباً .

وهي **عمود الحق** وقاعدته (٨) .

الكنيسة سر

فماذا نستنتج من هذه التشابيه والامثال والتحديدات للكنيسة !

اولاً : ان كثرتها ، بحد ذاتها ، دليل على غنى المفهوم . فلو كانت الكنيسة امراً بسيطاً ، سطحياً ، لكان التعبير عنه سريعاً وقليل التنوع . اما اضطرار الكتاب المقدس لاستعمال تلك التعابير المختلفة والمتنوعة ، فمعناه ان لا تشبيه ولا مثل ولا تحديد يحيط بكل معاني الكلمة . وان التنوع ضروري للتعبير عن وجهات النظر الكثيرة التي يجب التطلع منهـــا للتوغل في صميم الغنى الكياني للكنيسة .

ثانياً : ان اغلبية هذه التشابيه والتحديدات تحاول ان تعبر عن ازدواجية في هذا الغنى الكياني : واقع خارجي ، جسماني ، من جهة ؛ وواقع داخلي ، روحاني ، من جهة اخرى . واقع انساني وواقع الهي .

فتارة تبقى الازدواجية ظاهرة ، وطوراً تذوب في وحدة الاثنين في واقع واحد :

الملكوت — والملك

الشعب — الموحد في وحدة الآب والابن والروح

الزرع — والنمو

الحظيرة — والباب الواحد

الرعية — والراعي

الارض — والزارع

الجماعة المنظورة – الشركة الروحية

العروس – الحمل

الجسد – الرأس .

بناء الله

بيت الله

مسكن الله

المدينة المقدسة

الهيكل المنظور

امنا

عمود الحق وقاعدته .

ثالثاً : ان الواقع الانساني نفسه ، تارة يعبر عنه بالمفرد : ام ، عروس ، جسد . وطوراً بالجمع لجمل : شعب ، جماعة ، مدينة ، رعية . ومن ثم هناك حتى في الواقع الانساني نفسه ، ازدواجية ، ولكن من نوع خاص : كيان متعدد وكيان موحد . والعلاقة بينهما ديناميكية ، هي الاتجاه من التعدد الى الوحدة ، من تعدد اعضاء الكنيسة الى وحدة الجسد .

رابعاً : ان هناك تعابير تهدف توضيح العلاقة الموجودة بين الكنيسة واعضائها : هي « امنا » واخرى بين اعضاء الكنيسة انفسهم : « نحن اعضاء بعضنا لبعض » واخرى وهي الاغلبية تهدف توضيح العلاقة بين الاعضاء والمسيح :

– فالملكوت ، يملك فيه المسيح على الجميع الآن والى الابد .

– والزرع ، يعطي المسيح النمو الداخلي .

– والحظيرة ، لها الباب هو المسيح لا يدخلها احد الا من خلاله .

– والرعية ، يهدي المسيح خرافها ويرعاها .

– والبنــاء ، يبني المسيح ، وهو الاساس فيه حجر الزاوية .

– والعروس ، يحبها المسيح ويبذل نفسه فداء عنها .

– والجسد ، يوحد اعضاءه المسيح الرأس ويدير حياته .

هذا التحليل السريع للتشابيه والتحديدات يبين لنا الغنى الكبير الموجود في الكنيسة ، في كيانها الداخلي ، في عناصرها ، في علاقات العناصر بعضها ببعض ، غنى زاخراً ، اوسع من اي واقع انساني آخر ، فردي او جماعي ، ولهذا يمكن القول انه يفوق الادراك السطحي العادي ، بل المعرفة العقلانية البسيطة ، كما يفوق التعبير الكامل الشامل ...

انه سر ، اذن .

سر عــلى الصعيد الانساني ، بسبب الواقع الانساني الذي تجمعه الكنيسة .

وسر على الصعيد المسيحي ، كما سنحلله فيما بعد .

نص الوثيقة عن السر

والوثيقة المجمعية تعبّر عن هذا السر في المقدمة والمقطـع الثامن ، اذ تقول :

« الكنيسة في المسيح هي بمثابة سر ، او دليل واداة للاتحاد الوثيق بالله ولتوحيد الجنس البشري باسره » (١) .

« وهكذا ليس ببعيد ان تشبّه الكنيسة **بسر الكلمة المتجسد .** وكما ان الطبيعة التي اقتناها الكلمة الالهي تخدمه كأداة خلاص ، اداة حية ، متحدة به اتحاداً لا ينفصم ، كذلك وعلى مثاله يستخدم روح المسيح هيكل الكنيسة الاجتماعي فيحييها في سبيل نمو الجسد » (٨) .

فما معنى ذلك ؟

الكنيسة سر التجسد الثاني

تقول الوثيقة اذن ان الكنيسة هي « سر الكلمة المتجسد » .

والتجسد على صعيدين :

هناك تجسد اول ، تم عندما « الكلمة صار جسداً » .

وهناك تجسد ثان ، تم عندما الكلمة المتجسد « حلّ فينا » .

ومن ثم ، فالمسيح هو سر الاله المتجسد .

والكنيسة هي سر « الاله الانسان » المتجسد .

معنى ذلك ان الاله الابن ، المتجسد في الانسان يسوع ، كان بوسعه ان يكتفي بهذا التجسد الفردي ، وان تكون علاقته مع الانسانية علاقة مخلص جاء من الخارج ، من علُ ، وتألم ومات وقبر وقام ... وافتدى هكذا الانسانية جمعاء بتجسده الاول هذا ، دون ان يعلق مصيره الشخصي بها ، بل تاركاً الانسانية خارجاً عن شخصيته .

لا ، لم يكتف . بل اراد ان يتجاوز تجسده في الانسان يسوع ، ليتجسد في الانسانية جمعاء .

وقد توقفت الوثيقة المجمعية (مقطع ٧) على هذا الموضوع ، جامعة نصوص بولس الرسول الكثيرة فيه :

« ان ابن الله افتدى الانسان ليصنع منه « خليقة جديدة » (غلا ٦ : ١٥) وعندما افاض روحه ، اقام اخوته ، الذين دعاهم من جميع الامم ، على نحو سري ، بمثابة جسده » .

وفي هذا الجسد تجري حياة المسيح داخل المؤمنين ... بواسطة الاسرار.

فبالعماد نصير شبيهين بالمسيح : « اننا جميعاً قد اعتمدنا بروح واحد لجسد واحد » (١ كو ١٢ : ١٣) .

وفي كسر خبز الشكر ، نأخذ نصيبنا من جسد المسيح : « وهكذا نصبح جميعاً اعضاء في هذا الجسد » (١ كو ١٢ : ٢٧) .

وكما ان اعضاء الجسم الانساني ، وان تعددت ، لا تؤلف الا جسماً واحداً ، كذلك هو شأن المؤمنين بالمسيح (١ كو ١٢:١٢)...

اما رأس هذا الجسم فهو المسيح (اف ٤ : ١١) ...

والكنيسة هي جسد المسيح وتمامه (اف ١ : ٢٢ و ٢٣) .

الكنيسة سر اتحاد البشرية بالمسيح

والنتيجة الاولى لهذا « التجسد الثاني » ان البشرية اصبحت على الصعيد الكياني ، في جذورها العميقة الجوهرية ، متحدة بالمسيح ، وكل فرد فيها مدعو لان يكون عضواً فيه ، على الصعيد الشخصاني ، صعيد المعرفة والحرية .

وما معنى ذلك ؟

معناه ان كيان الله اللامتناهي والكامل وكيان الانسان المحدود والبعيد جداً عن الكمال اصبحا ، لا فقط غير متنافيين ، وغير مستقلين الواحد عن الآخر ، بل في علاقة وثيقة الواحد بالآخر . وهذه العلاقة لا علاقة معاملات خارجية ، فيها واجبات للانسان تجاه الله وواجبات لله تجاه الانسان ، بل علاقة داخلية وحدوية ، بمعنى ان الكيانين اصبحا متحدين . وهذا الاتحاد لا اتحاداً رمزياً ، او ادبياً ، كما يتحد اعضاء جمعية ما في سبيل هدف واحد ، ولا اتحاداً صداقياً ، كما يتحد صديقان على السراء والضراء ، ولا اتحاداً عاطفياً كما يتحد زوجان ، فيشعران – في حالات حبهما الشديد – « كأنهما » واحد ...

... فالاتحاد بين كيان الله وكيان الانسانية يتجاوز هذه « الاتحادات » مهما سمت ومهما وثقت عراها : **هو اتحاد شخصاني في شخص المسيح** .

يعني ذلك ان كيان الله وكيان الانسانية ، لاول مرة في تاريخ البشرية ، اصبحا ، في المسيح ، شخصاً واحداً مسؤولاً ، واعياً ، حراً ، يقول : « انا » واحدة تضم الكيانين معاً ، وتجعل من كل اعمال المسيح اعمالاً مشتركة بين الله والانسانية .

فعندما نقول ان المسيح قد صلب ومات وقام ، يعني ذلك ان المسيح — « الاله الانسان » — قد صلب ومات وقام . وان البشرية جمعاء ، في شخص المسيح ، قد صلبت وماتت وقامت ، ان كيانها المتحد بكيانه ، عبر شخصه الواحد ، جرى عليه حادث الصلب الموت والقيامة :

« اننا نعلم ان انساننا العتيق قد صلب معه ، لكي يتلف جسم الخطيئة » (روم ٦ : ٦) .

« فان كنا قد متنا مع المسيح ، نؤمن اننا سنحيا معه » (روم ٦ : ٨) .

« وقد دفنا معه في الموت » (روم ٦ : ٤) ...

« واذا كنا غرسنا معه على شبه موته ، فنكون على شبه قيامته ايضاً » (روم ٦ : ٥) .

« مدفونين معه في المعمودية ، التي فيها ايضاً اقمتم معه بايمانكم بعمل الله وحين كنتم امواتاً في الزلات ... احياكم معه مسامحاً لكم بجميع زلاتكم » (كو ٢ : ١٢ و ١٣) .

« واقامنا معه واجلسنا معه في السماويات في المسيح يسوع » (١ ف ٢ : ٦) .

الصلب والموت والقيامة اعمال اذن مشتركة بين الاله والانسانية

جمعاء على الصعيد الكياني في شخص المسيح اي ان المسيح عاشها كلها بالاتحاد مع الانسانية ... « وأصبحها » كلها مع الانسانية ، في شخصه هو .

بقي على الانسانية ان تعيشها « وتصبحها » مع المسيح .

وهذا سر الكنيسة في الزمن :

أن يأخذ كل فرد من الانسانية قسطه من الاتحاد الكياني بين الله والانسانية ويعيشه شخصياً ، ان يصلب ويموت شخصياً مع المسيح في ارادته وحريته ووعيه ، ليحيا معه شخصياً في وجدانه كله .

وان كان بولس الرسول لا يميز في بعض كتاباته بين الصعيد الكياني والصعيد الشخصاني ، ففي كثير من الآيات نجد هذا التمييز :

« لا كأني بلغت الى الكمال ، الا اني اسعى لعلي ادرك ما ادركني لاجله المسيح » (في ٣ : ١٢) . فما ادركه المسيح في كل واحد منا من الاتحاد والحياة ، على كل واحد منا ان يسعى ليدركه اتحاداً به وحياة معه .

« اخلعوا الانسان العتيق مع اعماله والبسوا الانسان الجديد الذي يتجدد للمعرفة على صورة خالقه » (كو ٣ : ٩ و١٠) .

هذا الانسان العتيق الذي قال عنه بولس في الآية المذكورة سابقاً « اننا نعلم ان انساننا العتيق قد صلب معه » ، « جملة » وشمولاً للانسانية جمعاء في الحادث الشخصي الذي عاشه المسيح مع الانسانية ، علينا نحن « تفصيلاً » ، فرداً فرداً ، ان نخلعه مع اعماله ونلبس الجديد ، اي المسيح « انتم الذين بالمسيح اعتمدتم المسيح قد لبستم » (غلا ٣ : ٢٧) .

كما يعرف بولس الرسول ان ما يحدث كيانياً لنا هو « لا حسي » ، او فائق الحس والاختبار « انكم قد متم وحياتكم مستترة مع

المسيح في الله » (كو ٣ : ٣) ، بينما ما يجب ان يحدث لنا شخصياً فهو حسي اختباري : « فأميتوا اذن اعضاءكم التي على الارض ، الزنى ، والنجاسة ... » (كو ٣ : ٥) .

ويختصر بولس الرسول هذين الصعيدين قائلاً :

« ان كنا نحيا (كيانياً) بالروح ، فلنسلك (شخصياً) بالروح ايضاً » (غلا ٥ : ٢٥) .

***

فعندما نقول ان الكنيسة هي سر المسيح ، نعني هنا اذن انها:

- سر اتحاد المسيح بالبشرية كيانياً ، يجعل من الاثنين واحداً .
- وسر اتحاده بها شخصياً ، اي في شخصه واعماله الشخصية .
- وسر اتحاد الانسانية بالمسيح ، « جملة » ، كيانياً ، في حياة مستترة بالله .
- وسر اتحاد كل فرد من الانسانية به ، « تفصيلاً » ، شخصياً ، في حياة واعية حرة .

هنا ايضاً بسبب هذا الغنى البعيد الاغوار الذي ما عملنا إلا ان ألمحنا اليه ، دون ان نغوص به ، نستشف لماذا يجب ان نطلق على واقع الكنيسة وعلاقتها بالمسيح كلمة « سر » .

وهنا ايضاً ، بدل ان تبعدنا عن الفهم ، يجب ان تستحثنا الكلمة على سبر هذه الاغوار البعيدة ، لا بعقلنا المنطقي وحسب ، ولكن بكل مداركنا ، بكل قوانا الانسانية ، لاسيما بخبرة حياتنا .

وهذا التحليل السريع يبين لنا مثلاً كيف يمكننا بالوقت ذاته الاعلان :

- بأن الكنيسة والمسيح كيان واحد .

بأن المسيح وحده كامل ، « فيه رضيَ الآب ان يحل الملء كله » (كو ١ : ١٩) .

ومن جهة اخرى بأن المسيح مع الكنيسة هو الكامل ، فهو الرأس وهي الجسد ، لا يكتمل الواحد دون الآخر .

– بأن الكنيسة احبها المسيح وبذل نفسه لاجلها ، ليقدسها ، مطهراً اياها بغسل الماء وكلمة الحياة » ... (اف ٥ : ٢٥ و ٢٦) كأنهما شخصان منفصلان .

وبالوقت نفسه ، اننا والكنيسة جمعاء « اعضاء جسده من لحمه وعظامه . وكما ... يصير الرجل والمرأة جسداً واحداً » ... هكذا نحن مع المسيح ، « ان هذا لسر عظيم : اقول هذا بالنسبة الى المسيح والكنيسة » (اف ٥ : ٣٠ – ٣٢) .

– « بأن المسيح هو هو امس واليوم والى الابد » (عب ١١ : ٨) « وقد جلس عن يمين الآب ممجداً ، كاملاً » .

وبالوقت نفسه ان المسيح ينمو : فكما ان تجسده الاول جعله « ينمو في الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس » (لو ٢ : ٥٢) ، كذلك اراد ان يحدث نمو مطرد في تجسده الثاني ، كما عبّر عن ذلك في مثل الزرع ، وحبة الخردل ... نمو مطرد ، ما دام الزمان ، « الى ان ننتهي جميعنا الى وحدة الايمان ومعرفة ابن الله ، **الى انسان كامل** الى مقدار **قامة ملء المسيح** » (اف ٤ : ١٣) .

– بان المسيح والانسانية جمعاء متحدان ،

وان الكنيسة هي الانسانية جمعاء ،

وبالوقت نفسه ان جزءاً خاصاً من الانسانية هو الكنيسة ، وهذا الجزء هو الذي اتحد شخصياً ، لا فقط كيانياً بالمسيح .

– وبان المسيح ، كما استخدم طبيعته البشرية في الانسان

يسوع كأداة لخلاص البشرية . لانها كانت اداة حية بحياته ، متحدة اتحاداً شخصياً به ، كذلك اراد ان يستخدم جزءاً من البشرية هو « هيكل الكنيسة الاجتماعي » (كما تقول الوثيقة) ، كأداة خلاص حية للبشرية جمعاء .

كما يمكن لهذا التحليل ان يجعلنا نفهم اكثر فاكثر معاني الامثال والتشابيه المتنوعة التي اوردناه عن الوثيقة وهذه عن الانجيل . وكل مثل وكل تشبيه يجعلنا نلج ولوجاً اعمق ضمن هذا السر العظيم » ، سر التجسد الثاني ، سر اتحادنا بالمسيح واتحاد المسيح بنا ، واتحاد البشرية بالله .

الكنيسة سر توحيد الجنس البشري

ولنرجع الى نص الوثيقة : « الكنيسة في المسيح هي بمثابة سر ، او دليل واداة :

– للاتحاد الوثيق بالله

– ولتوحيد الجنس البشري باسره » (١) .

فاتحاد البشرية بالله يكمله اذن اتحاد آخر ، هو اتحاد البشر بعضهم ببعض . والمجمع يؤكد ان الكنيسة هي سر – اي دليل واداة – للاتحادين معاً .

فماذا يعني المجمع بالكنيسة « سر توحيد الجنس البشري باسره » ؟

يعني بان المسيح لم يكتف باتحاد شخصي مع كل شخص ولا مع البشرية جمعاء ، وحسب . بل اراد ان تتحد هذه البشرية اجزاؤها وافرادها بعضها ببعض . واراد الكنيسة اداة ودليلًا لهذا التوحيد .

فمن نتائج المعصية كان التشتت والتباعد بين بني البشر . فبعد برج بابل ، « شتتهم الله على وجه البسيطة كلها ... وبلبل

السنتهم » (تك ١١ : ١ - ٩) .

وعقب التباعد التباغض والتقاتل وحرم البعض للبعض الآخر واعلانهم مدنسين ، وتكريس التمييز الجنسي والطبقي والعنصري واللوني والديني ... بل تنظيم الحروب باسم الدين والله !

فاذا البشرية كلها ذرات لا يجمع بينها جامع حقيقي واحد ، كل ذرة منغلقة على ذاتها ، حتى في التكتلات والتجمعات المصطنعة التي حاولت نسجها على مر العصور .

لان الجامع الحقيقي الوحيد هو « الله - المحبة » .

« وهكذا احب الله العالم حتى انه بذل ابنه الوحيد » (يو ٣ : ١٦).

... « لكي يجمع ابناء الله المتفرقين الى واحد » (يو ١١ : ٥٢) .

واول ما ابطله المسيح هو انقسام العالم الى فئتين : الشعب اليهودي من جهة وجميع « الامم » من جهة اخرى ، وعلى هذا المثال ابطل كل انقسام :

هو سلامنا .

هو جعل من الاثنين واحداً .

هو نقض ، في جسده ، حائط السياج الحاجز ، اي العداوة ...

ليخلق الاثنين ، في نفسه ، انساناً واحداً جديداً ...

ويصالح كليهما ، في جسد واحد ، مع الله ، بالصليب ، بقتله العداوة ، في نفسه ...

وليس بعد من غرباء ولا دخلاء .

بل الجميع رعيته ... واهل بيت الله » ... (اف ٢ : ١٤ - ٢٢) .

ثم ابطل التمييز العنصري والطبقي والجنسي :

اذ ليس بعد يهودي ولا يوناني .

« ليس عبد ولا حر .

ليس ذكر ولا انثى .

بل الجميع واحد في المسيح يسوع » (غلا ٣ : ٢٨) .

فبعد ابطاله التباعد ، والانقسام والتمييز ، والمفاضلة بين الناس ، واعلانه من ثم مبدأ المساواة بين الجميع « اهل بيت الله » ، « وابناء الله » ... كان لا بد من التوحيد بين الجميع .

وكان لا بد من اداة للتوحيد .

في ذرّات الطحين المتساوية قيمة امام الله ، كان لا بد من خميرة الكنيسة .

لهذا « يشبه ملكوت السموات خميرة اخذتها امرأة وخبأتها في ثلاثة اكيال دقيق حتى اختمر الجميع » (متى ١٣ : ٣٣) .

« وبما ان الخبز واحد ، فاننا نحن الكثيرين جسد واحد ، لاننا نشترك في الخبز الواحد » (١ كو ١٠ : ١٧) .

***

وقد خصت الوثيقة المجمعية فصلًا كاملًا « بالكنيسة شعب الله » ، هو توسع في حقيقة الكنيسة ، « كسرّ توحيد البشر » ، نقتطف منه بعض الفقرات .

« من اتقى الله وعمل البر كان مقبولاً عنده في كل زمان وفي كل امة » (اع ١٠ : ٣٥) .

لكن الله لم يشأ ان يقدس الناس ويخلصهم **افراداً** ، دون ان يكون بينهم ارتباط . بل ان يجعلهم **شعباً** ...

ودعا المسيح من بين اليهود والشعوب **جماعة** ، يجمعها لا الدم بل الروح ، لتؤلف شعب الله الجديد .

هذا الشعب « المسيحي » رأسه المسيح ...

وشرعته وصية جديدة ، وصية المحبة ...

وغايته ملكوت الله ...

وهذا الشعب ، وان كان لا يضم في الواقع جميع الناس ، ولا يظهر احياناً الا كقطيع صغير ، الا انه يمثل للبشرية بأسرها زرعاً قوياً للوحدة ...

« ان الله جمع جماعة الناظرين بايمان الى يسوع ... لتكون للكل ولكل واحد آية منظورة للوحدة الخلاصية . ولما كان ينبغي لهذه ان تمتد في الارض كلها ، فانها تدخل في تاريخ البشر ، وفي الوقت عينه تفوق الزمان وحدود الشعوب (٩ و ١٠) .

« ان جميع الناس مدعوون ان يكونوا من شعب الله .

« ومن الواجب بالتالي ، ان يمتد هذا الشعب الى العالم اجمع والى الاجيال كلها ، مع بقائه واحداً وحيداً ، حتى يتم قرار الله الذي خلق في البدء البشرية واحدة ، وشاء فيما بعد ان يجمع ابناء الله المتفرقين الى واحد ...

« وهذا الشمول الذي يمتاز به شعب الله هو هبة من الرب عينه ، وبه تسعى الكنيسة الكاثوليكية سعياً فعالاً دائماً الى جمع البشرية بأسرها ، مع كافة خيورها ، تحت لواء المسيح في وحدة روحه .

« ان جميع الناس قد دعوا اذن الى وحدة شعب الله الجامعة ... وبها يرتبط واليها يسعى ، بانواع شتى ، سواء :

— المؤمنون الكاثوليكيون

— او سائر المؤمنين بالمسيح

– او جميع الناس بوجه عام ، المدعوين بنعمة الله الى الخلاص » (١٣) .

***

من هذه الفقرات نكتشف ايضاً غنى هذا « الجزء » من سر المسيح في الكنيسة ، سر توحيد البشر عبر الكنيسة .

– فالكنيسة هي **الجامعة** حالياً في كيانها المتحد بالمسيح ، لكل البشرية المتحدة بها هكذا بالفعل ، او بالارتباط ، او بالسعي ، او بالشوق ...

– والكنيسة هي « الآية المنظورة » **والدليل** للبشرية جمعاء على الوحدة الحقيقية ، التي تعيشها الكنيسة بالمسيح ، بينما تحلم بها الانسانية خارجاً عنها وتسعى اليها بانواع شتى دون ان تجدها .

– والكنيسة هي **الاداة** الفعالة التي تعمل في العالم ، منذ تأسيسها لاجل توحيد البشرية جمعاء بالفعل ، بواسطة التعليم والتقديس والتنظيم .

– والكنيسة هي « **المجموعة** » النهائية للبشرية ، عندما يطوى الزمن ، ولا تبقى الا الابدية .

العلاقة بين سر الاتحاد بالله وسر توحيد البشرية

الكنيسة سر المسيح اذن تقوم بعمل المسيح « بجزءيه » : الاتحاد بالله ، وتوحيد البشرية . فما علاقة كل جزء بالآخر ؟

كل عمل يوحد بين البشر ، يوحد بين البشر والله .

وكل عمل يوحد بين البشر والله ، يوحد بين البشر .

« اذا **اتفق اثنان** منكم على الارض في كل شيء يطلبانه ، فانه يكون لهما من قبل ابي الذي في السموات . لانه حيثما اجتمع اثنان او ثلاثة باسمي ، **فانا اكون هناك** فيما بينهم »

(متى ١٨ : ١٩ و ٢٠) .

« فلما صلوا ، تزلزل الموضع الذي كانوا مجتمعين فيه ، وامتلأوا جميعهم من الروح القدس ... وكان لجمهور المؤمنين **قلب واحد ونفس واحدة** ، ولم يكن احد يقول عن شيء يملكه انه خاص به . بل كان لهم كل شيء مشتركاً » (اع ٤ : ٣١ و ٣٢) .

« وليؤتكم اله الصبر والتعزية **اتفاق الآراء** فيما بينكم بحسب المسيح يسوع ، حتى انكم بنفس واحدة وفم واحد **تمجدون الله** ابا ربنا يسوع المسيح » (روم ١٥ : ٥) .

وما الذي يوحد بين البشر ؟ وبين البشر والله ؟

المحبة ولا شك !

« قد اعلنت اسمك للناس الذين اعطيتهم لي من العالم ...

احفظ باسمك الذين اعطيتهم لي ليكونوا واحداً كما نحن واحد ...

ليكونوا باجمعهم واحداً ، كما نحن واحد ، انا فيهم وانت فيّ ، ليكونوا مكملين في الوحدة ...

قد عرفتهم اسمك وساعرفهم لتكون فيهم المحبة التي احببتني واكون انا فيهم » (يو ١٧ : ٦ ، ١١ ، ٢٢ ، ٢٣ و ٢٦) .

« كما احبني الآب ، كذلك انا احببتكم ، اثبتوا في محبتي .

هذه وصيتي ان يحب بعضكم بعضاً كما انا احببتكم (يو ١٥ : ٩ و ١٢) .

« الله لم يره احد قط .

ولكن ان احببنا بعضنا بعضاً يثبت الله فينا وتكون محبته كاملة فينا » (ا يو ٤ : ١٢) .

وهذه المحبة هي بدورها علامة وجود المسيح ، علامة حضور الكنيسة سر المسيح :

« بهذا يعرف الجميع انكم تلاميذي ، اذا كنتم تحبون بعضكم بعضاً » (يو ١٣ : ٣٥) .

« ليكونوا واحداً كما نحن واحد ، انا فيهم وانت فيّ ، ليكونوا مكملين في الوحدة ، حتى يعلم العالم انك انت ارسلتني ، وانك احببتهم كما احببتني » (يو ١٧ : ٢٢ و ٢٣) .

لهذا كان يدعو الآباء القديسون الكنيسة : سر المحبة .

وهكذا نرجع الى السر الاول الذي منه ينبثق كل شيء : الله المحبة .

فسر الله معلن في سر المسيح : محبة .

وسر المسيح معلن في سر الكنيسة : محبة .

ب ـ الكنيسة سر المسيح تفصيلاً

الكنيسة بجملتها سر المسيح ، وهذا ما حاولنا بيانه حتى الآن ، وما يمكن تسميته بالكنيسة الجامعة الشاملة .

والكنيسة « بتفاصيلها » هي ايضاً سر المسيح .

وما « تفاصيل » الكنيسة ؟ هناك انواع : مكانية زمانية ـ جماعية فردية ـ سلطة خدمة وطاعة مسؤولية ـ شعائرية حياتية .

١ ـ مكانية زمانية

الكنيسة الجامعة الشاملة « تفوق الزمان وحدود الشعوب » كما تقول الوثيقة . ولكنها ايضاً ، قبل انتهاء الزمان ، تتجسد في التاريخ ، بحسب المكان والزمان .

ففي كل زمان وجه للكنيسة تؤلفه جماعة المؤمنين بالمسيح العائشين على سطح البسيطة . لهذا يمكننا ان نتحدث عن كنيسة

العصور الاولى – وكنيسة القرون الوسطى – وكنيسة القرن العشرين .

بل في كل قرن اجيال ، وفي كل جيل كنيسة . بل في كل سنة كنيسة .

اما من جهة المكان فيمكن القول ايضاً ان لكل بلاد كنيسة ولكل شعب كنيسة . بل في كل بلاد ، هناك ابرشيات ، وكل ابرشية كنيسة يرئسها اسقف . وفي كل ابرشية رعايا . وكل رعية كنيسة يرئسها كاهن الرعية .

وهذه « التفاصيل » الزمانية والمكانية لا تجزىء الكنيسة . اي ان كنيسة القرن الاول والقرن العشرين ، وكنيسة لبنان ، او ابرشية بيروت او رعية القديس انطونيوس ، ليست قسماً من الكنيسة ، بل هي كل الكنيسة في تجسيد مكاني او زماني معين .

وذاك ايضاً من نتائج « سرية » الكنيسة .

فاذا كانت الكنيسة سر المسيح المعلن للبشر ، والمسيح لا يتجزأ ، ولا يتقسم اعلانه ، وجب القول ان كل تفصيل زماني او مكاني للكنيسة فيه كل المسيح وفيه كل الكنيسة .

ولهذا كل انسان يمكنه عبر ابرشيته او رعيته ان يتحد بالمسيح ويتحد بالبشر ، بل لا يمكنه ذلك إلا عن طريقهما ، اذ هما وحدهما على صعيده الشخصاني المتجسد بالتاريخ .

والوثيقة المجمعية تتكلم عن هذه « الكنائس الخاصة » في القسم الثالث (٢٣ – ٢٦) . « فالاساقفة ، منفردين ، الذين يرئسون الكنائس الخاصة يمارسون تدبيرهم الرعائي على القسم الموكول اليهم من شعب الله » ... (٢٣) .

« والكنيسة موجودة حقاً في جماعات المؤمنين المحلية ، القائمة شرعاً والموالية لرعاتها ، وقد دعيت كنائس في العهد الجديد . وهي ، حيث هي ، **الشعب الجديد** الذي دعاه الله بالروح القدس وكمال

اليقين » (افس ١ : ٥) . فيها يجتمع المؤمنون لسماع الكرازة ...

« وفي هذه الجماعات ، وان كانت غالبا محدودة فقيرة ، مشتتة ، يحضر المسيح ، الذي بقوته تجتمع الكنيسة الواحدة المقدسة الجامعة الرسولية » (٢٦) .

فالكنيسة الخاصة هي مثل سر حضور الكنيسة الجامعة الشاملة .

٢ ـ جماعية فردية

والكنيسة الجامعه الشاملة مفصلة ايضا على نحو آخر ، جماعي فردي : فهي جماعياً سر المسيح ، وهي فرديا سر المسيح .

نرى ذلك اولاً على صعيد الاساقفة .

« فالمجمع المقدس يعلم ان الاساقفة قد خلفوا الرسل في المقام ، بقوة الوسم الالهي ، كرعاة للكنيسة ، الذي ، ان سمع منهم احد سمع من المسيح ، وان احتقرهم احد احتقر المسيح ... (٢٠) .

« والاسقفية واحدة غير منقسمة » (١٨) .

« وبوصف الاساقفة اعضاء في الحلقة الاسقفية » هم ملتزمون بان يهتموا بالكنيسة كلها » . (٢٣) هذه هي « الجماعية الاسقفية » .

فالكنيسة هي حيث يجتمع كل الاساقفة معاً ، كما في المجمع المسكوني ، مثلًا (٢٢) .

ومن جهة اخرى كما يقول الشهيد في رؤساء الكهنة اغناطيوس الانطاكي ، « حيث الاسقف فهناك الكنيسة » ... اذا لم يكن منشقاً عنهم بالايمان والمحبة .

وعلى صعيد الاسقف مع كهنته كذلك ، هناك جماعية « البرسبتريوم » . فالاسقف مع كهنته هم الكنيسة الخاصة في الابرشية . وكل كاهن في رعيته ، اذا كان متحداً بالاسقف

بالايمان والمحبة ، هو الكنيسة . « والكهنة ، بتقديسهم وتدبيرهم الجزء الموكول اليهم من قطيع الرب ، تحت سلطة الاسقف ، يجعلون الكنيسة الجامعة منظورة في محل اقامتهم ويقومون بعمل بليغ في بناء جسد المسيح كله » (٢٨) .

وكذلك على صعيد المؤمنين العلمانيين : فالجماعة هي سر حضور المسيح . وكل فرد من الجماعة ، اذا كان متحداً بها بالايمان والمحبة هو سر حضور المسيح ، هو كنيسة بحد ذاته لكل من لديه نظرة الايمان . « فالعلمانيون يعملون من داخل ، كالخمير ، على تقديس العالم ، ويظهرون المسيح للآخرين ، على هذا السبيل بشهادة سيرتهم ، وما يتلألأ فيهم من ايمان ورجاء ومحبة » . (٣٠)

« وعلى كل علماني ان يقف امام العالم ، شاهداً لقيامة الرب يسوع وبقائه ، وآية الله الحي » (٣٨) .

٣ ـ سلطة خدمة وطاعة مسؤولية

والكنيسة مفصلة ، بحسب علاقة اعضائها بعضهم ببعض ، الى قسم يمثل السلطة وقسم يمثل الطاعة . وهنا ايضاً وجهان غير منفصلان ، بل متكاملان لتجسد المسيح عبر الكنيسة .

« وان المجمع المقدس يجدد التعليم في رسم رئاسة الحبر الروماني المقدسة ، ودوامها وقوتها وغايتها ... وكذلك التعليم في الاساقفة خلفاء الرسل الذين يدبرون بيت الله الحي مع خليفة بطرس ، نائب المسيح والرأس المنظور للكنيسة جمعاء » . (٣٢)

« والسيامة الاسقفية تولي مع وظيفة التقديس وظيفة التعليم والتدبير ... بحيث يصبح الاساقفة ، على نحو فائق ومنظور ، ممثلين للمسيح عينه المعلم والراعي والحبر ، وعاملين باسمه (٢١) .

« والسلك الاسقفي ... مع رأسه الحبر الروماني ... هو

صاحب السلطة العليا الكاملة على الكنيسة جمعاء » (٢٢) .

ولكن : « ليضع الاسقف نصب عينيه مثل الراعي الصالح الذي جاء لا ليخدم بل ليُخدم (متى ٢٠ : ٢٨) ويبذل نفسه عن الخراف (يو ١٠ : ١١) . انه قد اتخذ بين الناس متلبساً بالضعف ... (٢٧) .

كذلك المؤمنون العلمانيون ، يمثلون المسيح في طاعته ، هو « الذي اطاع حتى الموت ، ورفعه الآب » ... (في ٢ : ٨) .

ولكن « وكل علماني بما منح من مواهب ، شاهد لرسالة الكنيسة واداة حسية لها ، على مقدار موهبة المسيح (اف ٤ :٨)

« وعلى العلمانيين جميعاً تقع المسؤولية الشريفة في العمل على ان يمتد قرار الخلاص الالهي الى جميع الناس في كل زمان ومكان ، يوماً بعد يوم » (٣٣) .

٤ ـ شعائرية ايمانية

والكنيسة الجامعة الشاملة مفصلة على نحو اخير ، شعائري حياتي . ونسمي شعائر الاسرار السبعة (لخلو العربية من كلمتين لمعنى سر كما اشرنا الى ذلك سابقاً) .

اجل الكنيسة مفصلة على الاسرار السبعة ، بمعنى انه ، حيث يمارس سر منها ، فهناك حضور لكامل الكنيسة .

« ففي سر عشاء الرب ، تتوثق الاخوة الشاملة بواسطة جسد الرب ودمه . ففي شركة المذبح ، بخدمة الاسقف المقدسة ، يتمثل سر المحبة ووحدة الجسد السري التي لا خلاص بدونها (٢٦) .

« وفي العماد ننال شركة كهنوت المسيح الملكي » (٢٦) ...

وهكذا يمكن القول ان كل « حدث شعائري ، (كل تثبيت ، وكل اعتراف ، وكل زواج وكل مسحة مرضى ، وكل سيامة كاهن ،

وكل عشاء سري وكل عماد) هو حدث سري بالمعنى الذي تعودناه اي هو حضور كامل للكنيسة ، التي هي حضور كامل للمسيح ، الذي هو حضور كامل لله الثالوث ، لله المحبة .

وكذلك كل « حدث حياتي » ، ونسمي كذلك في حياة المسيحي كل فعل ايمان او رجاء او محبة ، يصبح شهادة للمسيح ودليلاً عليه ، وتجسيدا لحضوره . لان المسيح هو الذي – ضمن هذا الحدث الحياتي – يحيا بلاهوته وناسوته ، كما يقول بولس الرسول : « انا حي ، لا انا ، بل انما المسيح حي في » . (غلا ٢ : ٢٠) . فكل حدث حياتي هو سر المسيح وسر الكنيسة في نقطة من الزمان المكان .

***

بهذه النظرة الجديدة القديمة ، بهذه النظرة الانجيلية الجمعية للامور ، نكتشف كم نحن على ضلال ، عند ذكر الكنيسة ، ان نفكر بالمؤسسة الهرمة ، بل ان نفكر بالمؤسسة الاجتماعية اولاً ، وما هذه الا احد اوجه تجسد سر الكنيسة كما نكتشف ان كل شيء داخل ضمن الكنيسة سر المسيح ، وان في هذا السر حقاً كل كنوز الحكمة والمعرفة » ، بل الغنى الزاخر للحياة الانسانية كلها والملقحة بالحياة الالهية .

الخلاصة

هذا قبس من نور ، من المسيح النور الازلي المتغلغل في ظلمة العالم ليمحوها ، لينير كل انسان آتٍ الى العالم (يو ١ : ٩) .

هذا سبر غور من الاغوار العميقة الابعاد الموجودة في المسيح وكنيسته .

ويجرب كل انسان ، وكل عصر ، ان يتلمس النور وان يسبر الاغوار ، دون ان تصل الانسانية الى **اكتناه السر** ، ودون « ان تدرك ما العرض والطول والعلو والعمق » (اي كل الابعاد) ،

ودون ان تعرف محبة المسيح التي تفوق المعرفة ، (بسبب هذا الغنى) (اف ٣ : ١٨ و ١٩) .

ومهما توغلنا في اكتناه السر ، لن نصل الى المعرفة التامة .

« لاننا الآن ننظر في مرآة ، على سبيل اللغز ، اما حينئذ (في السماء) فوجهاً الى وجه . اني الآن اعلم علماً ناقصاً . اما حينئذ فسأعلم كما علمت . (١ كو ١٣ : ١٢) .

الكنيسة مرآة المسيح ، كلما صورت لنا قسمات من وجهه ، كلما اشتقنا الى رؤية سائر القسمات .

***

يبقى ان تلك الكلمات الثلاث التي ترتبط فينا ، كما رأينا ، بكل ما هو عميق من عطشنا وجوعنا ، للكيان ، للجوهر ، للحياد للمحبة ، للكمال ، لمصيرنا كبشر لتجاوز مصيرنا البشري ، للاله ، للاتحاد بالاله ... هي رهن حريتنا البشرية .

نحن نعطيها ان تكون : ـ الفاظاً سطحية لا معنى لها .

ـ او نظرية دينية تجرب ان تفلسف الوجود .

ـ او اختياراً عملياً ، وجودياً ، حياتياً .

هذه الكلمات الثلاث يعطينا اياها الله ، بواسطة المجمع المسكوني ، لكي نحاول ان نعيشها على حقيقتها في شخصيتنا الفردية وشخصيتنا الجماعية.

يتعلق بنا ان تكون الكنيسة، التي نحن فيها، سر المسيح المعلن للعالم.

ويتعلق بنا بواسطة تجسد كنيستنا في الزمان والمكان الذي نحيا فيه ، ان نعلن :

ـ ان الله لايزال سر الوجود الذي نصبو اليه مع البشرية جمعاء .

ـ وان الله لا يزال الحدث الاكبر في كياننا الشخصي ، تاريخ هذه البشرية .

لبنـــان

بين الليبرالية والاشتراكية

بقلم

الدكتور حسن صعب

الرؤيا الاشتراكية للمجتمع الامثل كفردوس ارضي « يؤخذ فيه من كل انسان وفقاً لمؤهلاته ويعطي فيه كل انسان وفقاً لحاجاته » . هي رؤيانا نحن قبل ان تكون رؤيا العقل الاوروبي الحديث . فهي رؤيا التوراة والانجيل والقرآن ، قبل ان تكون رؤيا كتاب « الرأسمال » . ومنتهى ما فعله كارل ماركس هو انه انزل الرؤيا من السماء الى الارض ، وتحوّل بها من مجال الدين الى مجال العلم ، وجعلها تحقيقاً لوعد التاريخ بدل ان تكون انجازاً لوعد الله .

فاذا كان المقصود بالاشتراكية هذه الرؤيا ، فانها ليست صالحة للبنان فحسب ، ولكنها واجبة الوجود فيه قبل اي موطن آخر من مواطن الانسان . ونحن ننظر الى لبنان نظرة جمالية ، فنراه في طبيعته الاخاذة جنة الله في ارضه . ولا تستقيم هذه النظرة الجمالية الا اذا اكتمل الجمال فيها بالخير والحق ، فأصبح لبنان بجمال الانسان فيه الفردوس الارضي الموعود . ونحن ننظر الى لبنان نظرة روحية ، فنراه المحراب الاقدس الذي يعبد الله فيه بخشوع وحرية . ولا تستوي العبادة الا حيث تكون عن شوق ومحبة لا عن خوف ورهبة . والانسان المستوفي لحاجاته المادية

او المستغني عنها هو وحده القادر على مثل هذا التواصل مع الله . ومن هنا كانت مجتمعات فرق الرهبان المسيحية وفرق العباد الاسلامية ، التي نشأت اول ما نشأت عندنا ، اسمى نماذج الحياة الاشتراكية التي عرفها الانسان حتى الآن .

والرؤيا الاشتراكية الحقة هي تلك التي تنشد تحرير الانسان من عبودياته المادية ، لتطلق طاقاته الروحية اطلاقاً لا نهائياً . وهي بهذا المعنى ايضاً رؤيانا نحن قبل ان تكون رؤيا سوانا . واذا كنا نحن مسيحيين ومسلمين لا نرى الحرية الكاملة الا في الدار الآخرة ، فاننا نرى واجب الانسان الدنيوي في العمل للاقتراب من هذا المثل الاعلى الالهي بقدر الطاقة الانسانية . فالتحرر بالعمل ، والعمل لتحرير كل انسان هو فريضة مسيحية واسلامية ، اي فريضة على كل مواطن لبناني ، قبل ان يكون دعوة اشتراكية . فنحن نلتقي اذاً مع الاشتراكية في رؤياها المستقبلية لسعادة الانسان كل الالتقاء . ولكننا نحن اكثر انسجاماً منها مع منطق التاريخ ، بل مع منطقها الديالكتيكي نفسه . ومنطقها المادي هو ان صراع الاضداد عبر التاريخ ينتقل بالانسان انتقالاً حركياً ديالكتيكياً من طور الى طور اعلى منه الى ان يبلغ الذروة في الفردوس الارضي . ومنطقنا الروحي نحن ان الفردوس الارضي هو ايضاً طور نسبي من اطوار التقدم ، وان الانسان لا يبلغ غاية هذا التقدم الا في طوره اللانهائي المتواعد عليه مع الله

ويعني هذا اننا نحن نستسيغ الرؤيا الاشتراكية ونتجاوزها . نستسيغها كتوق انساني الى عدالة انسانية نعتبرها حق كل انسان اي حق كل مواطن لبناني . فتقييم كل انسان لذاته ولعمله لا لملكه او جبروته هو حق انساني يفرضه المسيحية والاسلام . ولكننا لا نخوّل الانسان هذا الحق ككائن اقتصادي او سياسي او طبيعي بل ككائن روحي خلق على صورة الله ، كما تعرفنا

التوراة او بريء خليفة لله في الارض كما يعرفنا القرآن . واذا كان للكائن الاقتصادي حقه في عمله ، وللكائن السياسي حقه في سيادته ، وللكائن الطبيعي حقه في كماله ، فان للكائن الروحي حقه في كونه كله الذي خلقه الله له . وله رسالته في هذا الكون كله ليحقق ارادة الله اي ارادة الخير فيه . ولذلك تستوعب رؤيانا الالهية المسيحية الاسلامية الرؤيا الاشتراكية ، وتتجاوزها لما هو اوسع واشمل واعمق وانبل منها .

ولذلك ننظر الى الرؤيا الاشتراكية على انها بمختلف تجلياتها الماركسية وغير الماركسية وليدة تجربة زمانية ومكانية محدودة عانتها اوروبا الغربية منذ مطلع النهضة الحديثة ، واتيح لها ان تنشرها خارج حدودها . ولكنها تظل مع ذلك محصورة بحدود الزمان والمكان . واما رؤيانا نحن الآلهية للحرية والعدالة ، فانها تجربة الانسان مع الله في كل زمان ومكان . وتهزنا الرؤيا الاشتراكية اليوم ، وتتيح لنا ان ننفض غبار العصور الذي حجب عنا حقيقة رؤيانا الالهية . ولكننا ما ان نسترجع هذه الحقيقة ، وما ان نصيرها حركة وجودنا وروح مجتمعنا حتى تغدو الرؤيا الاشتراكية نسياً منسياً .

واستكشاف هذه الحقيقة من جديد هو واجب المسيحيين والمسلمين في لبنان قبل ان يكون واجبهم في اي موطن آخر . والتعرف اليها من جديد في نورها الازلي الوضاء يوجب علينا ان نتعرف تعرفاً صحيحاً الى جميع الحقائق النسبية ، التي تحدتها بالامس وما تزال تتحداها اليوم ، وفي مقدمتها الليبرالية والاشتراكية . فالليبرالية والاشتراكية هما من صنع العقل الاوروبي الحديث . ولا نستطيع الاختيار بينهما او اختيار تجاوزهما الا اذا عرفنا حقيقة ما هما عليه ، وعرفنا علاقة ما هما عليه بمعتقداتنا الآلهية السرمدية ، وعرفنا علاقة كل ذلك بمطالب حياتنا المتجددة في لبنان والعالم العربي والعالم كله .

ان لليبرالية والاشتراكية ، على ما بينهما من اختلافات اساسية ، قاعدة فلسفية مشتركة وضعها العقل الاوروبي الحديث . وتتحدانا هذه القاعدة اكثر مما تتحدانا الوسائل التنظيمية التي تجترحها كل منهما . ففي الوسائل التنظيمية مجالات للاختيار اكثر من مجالات اختيار القاعدة . والقاعدة الفلسفية المشتركة للايديولوجيتين هي قاعدة الفكر الاوروبي المنطلق من مدرسية القرون الوسطى الى تجريبية وعقلانية العصر الحديث . ولذلك تتفق الايديولوجيتان معاً في انهما دنيويتان وانسانيتان وعقلانيتان وثوريتان وتفاؤليتان .

فهما دنيويتان ، لانهما انزلتا معاً الفكر الاجتماعي من السماء الى الارض ، بل نقلتا الفردوس من الآخرة الى الدنيا . والليبراليون نادوا بالفردوس الارضي قبل الاشتراكيين . فالليبراليون الذين قصدوا العالم الجديد في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، فراراً من الاضطهاد او الضيق في اوروبا ، ارادوا ان يقيموا فيه فردوس الله في الارض . كما ان الاشتراكيين بمختلف مدارسهم يدعون الى اقامة الفردوس الارضي . والفرق بين الفريقين اعتقاد الفريق الاول بأنهم يحققون الفردوس الارضي بارادة الله ، واعتقاد الفريق الثاني بأنهم يحققونه بارادة التاريخ .

وهما انسانيتان ، لانهما انطلقتا معاً من روح النهضة الاوروبية ، التي حولت اهتمام الفكر من الله الى الانسان . فاصبحت سعادة الانسان واصبحت حقوقه الطبيعية هي الغاية المنشودة من قبل الليبراليين والاشتراكيين معاً . ولكن الليبراليين رأوا ضمانة هذه الحقوق في اقل تدخل ممكن من الدولة في نشاط الانسان الفردي ، بينما رآها الاشتراكيون في زوال الدولة هي مرحلة او وسيلة وان الغاية هو الانسان .

وهما عقلانيتان ، لان منطلق النهضة الاوروبية الحديثة مع روجيه بيكون تلميذ الفلسفة العربية ، ومع الرشديين اللاتين اتباع

الفيلسوف العربي ابن رشد ، ومع فرنسيس بيكن وديكارت ، هذا المنطلق هو عقلاني علمي . فالعقل المستهدي بالتجربة والملاحظة هو طريق الحقيقة . وقد بلغت هذه العقلانية العلمية اوجهاً مع نيوتن . فاشتد الايمان بقدرة العقل على ان يكتشف قوانين للنظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي كما اكتشف نيوتن قوانين النظام الطبيعي . ومن هنا انطلق الليبراليون والاشتراكيون معاً يعلن كل فريق انه توصل الى النظام الذي يؤدي الى الكمال الانساني كما توصل نيوتن الى نظام الكمال الطبيعي .

وهما ثوريتان لان هذا التحوّل الفكري من الاخروية الى الدنيوية ، ومن الماورائية الى الانسانية ، ومن الغيبية الى العقلانية هو تحول ثوري . وقد ادى هذا التحول الى تغير اساسي في موقف الانسان من السلطة . فبعد ان كان مبدأ الطاعة هو السائد حل محله حق الثورة على السلطة الجائرة . ولذلك يسوغ لنا ان نقول ان الليبرالية كانت ام الثورات الثلاث الانكليزية والاميركية والفرنسية . كما ان الاشتراكية هي ام الثورتين السوفياتية والصينية . وتفاعل الايديولوجيتين مسؤول بالاضافة لليقظة القومية عن الثورات الاميركية اللاتينية والاسيوية والافريقية . والفرق بين الثورات الليبرالية والاشتراكية ان الاولى غلب عليها طابع الانتفاض في سبيل الحقوق السياسية ، بينما غلبت على الثورات الاشتراكية روح التمرد في سبيل الحقوق الاجتماعية والاقتصادية .

والاثنتان تفاؤليتان ، لان لهما نظرة مستقبلية الى الانسان . وتفاؤليتهما مستمدة من نظرتهما التقدمية الى التاريخ الانساني . وهي وليدة القرنين السابع عشر والثامن عشر . وقد بلغت اشدها مع الموسوعيين في اعتقادهم بقابلية الانسان المطلقة واللانهائية للتقدم والكمال . وسواء انظر الليبراليون لحركة التاريخ من خلال علل الهية او طبيعية او نظر اليها الاشتراكيون من خلال الصراع الديالكتيكي الطبقي ، فان الفريقين متفقان على سير التاريخ الصعودي

وعلى ان حركة التاريخ صائرة بالانسان حتماً من طور من الحياة الى طور افضل منه .

وتؤلف هذه الخصائص الخمس اي الدنيوية والانسانية والعقلانية والثورية والتفاؤلية القاعدةَ الفلسفية الاوروبية الغربية الليبرالية والاشتراكية معاً . ولذلك فاننا لا نستطيع ان نفهمها كمذهب اقتصادي او سياسي الا على ضوء هذه القاعدة . والا كنا كمن يحاول ان يجني الثمر من شجرة اقتلعت جذورها . واذا كانت الليبرالية والاشتراكية تتعثران معاً في اكثر البلاد الاميركية اللاتينية والاسيوية والافريقية ، فذلك لان الشجرة الجديدة زرعت فيها من رأسها لا من جذورها . فالقاعدة الفلسفية الاوروبية الغربية لليبرالية والاشتراكية لا وجود لها بعد لا في فكر ولا في حياة الانسان في اميركا اللاتينية او آسيا او افريقيا . والاستثناآت الظاهرة تثبت هذا القول ولا تنفيه .

ولا بد لنا ان نعلن موقفنا من هذه القاعدة الفلسفية المشتركة ، قبل ان نفاضل بين الوسائل التنظيمية التي تقدمها لنا الايديولوجيتان . واجتهادنا نحن المتواضع هو ان هذه المقولات الخمس للفكر الحديث لا تتعارض مع مقولات فكرنا الالهية ، ما دامت لا تعتبر مقولات مطلقة . واجتهادنا هو ان المقولات النسبية الدنيوية والانسانية ، والعقلانية والثورية والتفاؤلية لا تنفي المقولات المطلقة ، ما دمنا نعتبر المقولات المطلقة من عند الله والمقولات النسبية من عند الانسان . ولا يعني هذا ان ما عند الانسان ليس من عند الله . فكل ما بنا فهو من الله . والانسان نفسه هو من الله . ولكنه يعني ان ادراك الانسان للمطلق رهين بمعرفته لله . وحيث لا تكون هذه المعرفة لا يكون الا النسبي . ومعرفة الانسان بالله تتجدد بتجدد المعارف النسبية التي يكتسبها عصراً بعد الآخر . والمعارف او المبادىء الليبرالية او الاشتراكية بتذكيرها لنا بعالم الانسان المتغير تذكرنا بعالم الله الذي لا يتغير ، وبتذكيرها لنا بذاتية

الانسان الصائرة تذكرنا بذات الله الكائنة ، وبتذكيرها لنا بعقلانية الانسان النظامية تذكرنا بنظامية الله المطلقة ، وبتذكيرها لنا بحق الانسان في الثورة تذكرنا باعجاز الله القادر على تغيير كل شيء ، وبتذكيرها لنا بمصير افضل للانسان تذكرنا بقدرة الله على ان يقول لأي شيء كن فيكون .

وهكذا نرى خلال التقاء المقولات المطلقة والنسبية ، مقولات ايماننا ومقولات العقل الحديث ، اي نرى خلال التقاء المقولات الالهية والانسانية الانسان مع الله بدل ان نراه ضد الله ، كما يريد لنا بعض الليبراليين ويريد لنا الاشتراكيون الماركسيون ان نراه . ورؤيا الله في حريته وعدالته مع الانسان في حريته وعدالته هي الرؤيا التي نسع فيها كل ما في الاشتراكية من خير ونتجاوزها الى ما هو خير منها . ويؤدي بنا هذا التلاقي بين مقولاتنا الالهية السرمدية والمقولات الانسانية العصرية الى اتخاذ موقف اختياري حر وخلاق من كل ما تقترحه علينا الليبرالية او الاشتراكية من وسائل تنظيمية سياسية او اقتصادية . فنحن لا نختار بين الله والانسان والآخرة والدنيا ، والايمان والعقل ، والحرية والعدالة ، لان وجودنا متكامل بكل منها ، ولكننا نختار بين الثورة والعنف ، وبين الصراع الطبقي والتوافق الاجتماعي ، وبين الديكتاتورية والديموقراطية ، لان في هذا الاختيار ايثاراً للوسيلة الاعلى على الوسيلة الادنى اي لذاتنا العليا على ذاتنا الدنيا . ولذلك نفضل ان نسلك الى الحرية والعدالة ، او الى الفردوس الارضي ، الطريق الذي خطه لنا الله الى الفردوس السماوي ، وهو طريق الثورة التنظيمية السلمية لا الثورة العنفية ، وطريق التكافل الاجتماعي لا طريق التفاني الطبقي ، وطريق الوحدة في الاقناع والتذوت لا طريق الوحدة في الاكراه والتشيء . هذا هو طريقنا المفضل الى المجتمع الافضل ، وهذا هو في نظرنا الطريق الاصلح للبنان ، بل هذا هو الطريق الافضل للانسان حيثما واينما استطاع ان يتخذ اليه سبيلاً .

وهذا هو الطريق الذي اخذ المجتمع الاشتراكي يجنح اليه بعد ان بلغ ما بلغ من تقدم ونضوج في الاتحاد السوفياتي . وهذا هو الطريق الذي اصطفاه الاشتراكيون الذين نشأوا في مجتمعات اشد تقدماً في اوروبا الغربية والشمالية . وهذا هو الطريق الاشق والاعسر ، ولكنه الطريق الاسلم والافضل . ويقتضي هذا الطريق من الدولة وعياً اعمق لحقيقة وجودها الديموقراطية ، ولمتطلبات واجباتها الانمائية . ويتطلب من المواطنين وعياً اعمق لحقوقهم وواجباتهم المدنية ، ويقظة اوفى لمعنى التكافل الاجتماعي ، واندفاعاً اشد نحو التنظيمات النقابية والحزبية العصرية التي تتطلبها الثورة الديموقراطية السلمية .

وبالرغم من كل ما يخطر في بالنا من مآخذ على الدولة ، فقد سبقت في وعيها الانمائي وعي المواطن المدني . ونقصد بالمواطن هنا بصورة خاصة الطليعة المتعلمة من الشبان اللبنانيين ، الذين يفترض فيهم ان يقودوا سائر المواطنين اللبنانيين نحو وعي افضل لحقوقهم وواجباتهم المدنية . فسياسة الحكومة الانمائية ما تزال لها بوادرها الاولى في الخطة الخمسية ، والاصلاح الاداري ، والضمان الاجتماعي ، والمؤسسات الانمائية التي اضيفت في السنوات الاخيرة للادارة العامة . ولكن ليست هناك بعد بوادر جدية لوعي المواطنين لواجباتهم الانمائية ، او لادراكهم بأن الانماء لا يصدر عن الدولة وحدها ، بل لا بد ان يكون نتيجة تعاون صادق وحقيقي بين الدولة والشعب .

ونجاحنا في تفادي الطريق العنفي الى التقدم او الى المجتمع العادل رهين بمثل هذا التعاون . واما اذا ظلت الهوة قائمة او مستفحلة بين الدولة والشعب ، فاننا نفتح بأنفسنا الطريق لاية ديكتاتورية اشتراكية او غير اشتراكية ، يمكن ان تبرز بحجة الغاء هذه الهوة بين الدولة والشعب .

اننا نريد ونفضل الطريق الديموقراطي الانمائي الى الفردوس الارضي . ويعني هذا ان نعمل لتصيير لبنان مثل هذا الفردوس بدون ان نفقد الحريات الاساسية الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي يصونها لنا الدستور اللبناني . ولا يعني هذا ان يحل نشاط الدولة محل نشاط الفرد ، بل ان تتدخل الدولة لمساعدة الفرد على التحرر من التخلف ، الى ان يأذن اليوم ، الذي يستطيع فيه الفرد ان يستغني عن الدولة استغناء تاماً . فالانسان الفرد لا الدولة هو الغاية . واذا اصبحت الدولة هي المالكة لكل شيء ، اصبح وجود الانسان الفرد في خطر ، واصبحت فعاليته في وهن ، وتحول من الخضوع لرأسمالية الافراد المحتكرين الى الاذعان لاحتكار الدولة . وفي الاحتكارين تهديد لذاتية الانسان ولكرامته . والفردوس الارضي الذي ننشد هو ذلك النعيم الاجتماعي الذي تتحقق فيه هذه الذاتية لا ذلك الجحيم الحكومي الذي تنعدم فيه الكرامة .

وتستطيع الدولة الديموقراطية ان تغالب الاحتكار بوسائل عديدة ، اهمها الوسائل الثلاث الرئيسية التالية :

١ – الانتخاب العام الحر النزيه .

٢ – النظام الضرائبي العادل .

٣ – الخطة الانمائية التي تعزز القطاع العام وتهدي القطاع الخاص .

واذا أحسن تطبيق هذه الوسائل في ظل نظام ديموقراطي مستقر ، جاءت اشد فعلاً من اية ديكتاتورية اشتراكية او غير اشتراكية . وهذه الوسائل ممكنة التطبيق في لبنان . ونستطيع ان ننتصر على العقبات التي تعترض الآن تطبيقها انتصاراً ديموقراطياً .

ولكن شرط هذا الانتصار ان تخرج النخبة اللبنانية من عزلتها ، وان تخترق الحواجز الطائفية المصطنعة التي نصبت بينها ، وان

تتحمل مسؤولياتها القيادية في المجتمع اللبناني تحملاً ديموقراطياً واعياً ومسؤولاً . فكل فرد من افراد هذه النخبة مسؤول عن وجود لبنان وتقدمه مسؤولية اي موظف كبير او صغير من موظفي الدولة . وقد آن لافراد هذه النخبة ان ينشدوا من الدولة اشياء غير الوظائف الفضفاضة ، او المغانم العارضة ، او الامتيازات الفارغة .

آن لهم ان يصبحوا الرقباء على الدولة ، لتقوم بوظائفها الاجتماعية والاقتصادية والانمائية بالاضافة الى وظائفها السياسية . ويستحيل عليها ان تقصر في هذه الوظائف اذا رأت عيون ابناء النخبة ساهرة عليها من ناحية ، وساهرة لتوعية سائر المواطنين من ناحية اخرى .

ان الديكتاتوريين في كل مجتمع هم قبضة قليلة من ابنائه المغامرين . ولكن الديموقراطيين فيه هم الاكثرية من ابنائه المتوافقين والمتعاونين والمتشاركين في السراء والضراء . فاذا انقلب الاكثرية المتعاونة الى اكثرية لا مبالية افسحت الطريق للأقلية المجازفة لاقامة اي نوع من الديكتاتوريات اشتراكية كانت او غير اشتراكية .

ونحن نريد من الاشتراكية رؤياها للانسان الافضل والمجتمع الاسعد لا تذرعها بالحكم الاسوأ او بالحاكم الاظلم . ولا نقرب من الرؤيا بدون الانحدار في المنعرجات التعسفية الا اذا ارتفعنا لمستوى المسؤولية الديموقراطية . فالديموقراطية مسؤولية بقدر ما هي حرية . وهي حق المشاركة في التقرير السياسي بقدر ما هي حق التشارك في الازدهار الاقتصادي . ولا يستقيم لنا الحقان الا بقدر ما نعرف كيف نمارسهما معاً . وممارستنا لهما معاً هي معيار قابليتنا لحياة الكرامة والحرية . فالحرية حق وصيرورة . وحق لبنان في الوجود هو ايضاً واجبه في ان يصير الفردوس الموعود . فلنتحد في العمل لهذا المصير ، فهو افضل ما نمكن ان نصير اليه لخيرنا وخير العرب وخير الانسانية جمعاء .

دور العلماني في الكنيسة

بقلم

الاب ميشال حكيم ب م

الحرية

في ذروة القيم التي تتغنى بها المسيحية الحرية التي هي حنين الانسان الى الوجود الحر الطليق ، المنعتق من كل قيد يحد وثبته ويضيّق عليه مديات نشاطه .

الانجيل والحرية

الناس في الانجيل كلهم احرار ، ليسوا قطيعاً يهش عليه بالعصا ولا دمى تحرّك . وحديث المسيح اليهم حديثه الى اشخاص واعين ، قادرين ان يختاروا مصيرهم . فقلبه في الانجيل يسيل حناناً على الجماهير ، يثقفها لتعزم عن معرفة ، يمد بينه وبينها حواراً ، يبسط لها حياته مثالاً يحتذى لتتوافر لها اسباب الاقتناع ولتصمم عن معرفة وروية وارادة .

وما الحرية في الانجيل واقع هو اهون من شر ، بل قيمة كبرى يؤكد عليها بقوة جديرة بالتقديس . ويهمس المسيح في آذان من يريدون ان يكونوا له تلاميذ ، ان تتوطد بينه وبينهم الصلات ، « ان اتبعوني » داعياً اياهم ان ينعتقوا بملء حريتهم من قيود الوجود وان يسلكوا طريقه طريق الحياة أحراراً .

وها هو بعد أن تخلّف عنه بعد خطابه في كفرناحوم كثير

من تباعه ، يتفرّس اسارير تلاميذه فيرى فيها دلالات التردد والحيرة ، فابتدرهم سائلاً بلطف بعيد عن اي اغراء ينتقص من حريتهم « وأنتم اتراكم تريدون ان تتركوني » . وذات يوم قال لشاب : « اذهب وبع كل ما لك ووزّعه على الفقراء والمساكين وتعال اتبعني » فتعاظم الامر على الشاب وعزّ المطلب ووهنت قواه امام التضحية ، فتركه المسيح يذهب في سبيله مقرراً مصيره كما يرتإي .

لا يطلب المسيح من تلاميذه ايماناً اعمى ، لا يستند الى منطق ولا ينيره عقل كما يزعم « كيركغرد » . اننا نراه في انجيله يستدرج تلاميذه الى اسباب الايمان ودوافعه استدراجاً رقيقاً مقدماً لهم شخصه الذي يوحي الثقة ويستدعي الايمان ، وقداسته المشعة واخلاقه النبيلة تدعمها اعاجيبه التي هي برهان بهي .

انه يريدنا ان نحترم حرية الاشرار نفسها . وحجته في ذلك ان الله يوزع خيراته وخلاصه على الجميع لا تمييز بين خير وشرير ، ويعطي امكانيات العيش للجميع على السواء : يشرق شمسه على الاشرار والصالحين .

والتوبة نفسها لا يريدها الا حرة تحملنا اليها وثبة قلب عفوية مباشرة ، لا ينتزعها خوف ولا تصمها عبودية .

المسيحية والحرية

جدد القديس بولس تعليم المسيح عن الحرية في رسائله الى رومة وغلاطية ، فقال : ان علاقات الشعب اليهودي بالله يسمها طابع العبودية اذ اخضعه الله لشريعة هي مثل كل الشرائع تلجم ميل الانسان الطبيعي الى الاستقلال ، تغريه بالمكافأة ، وتتوعده بالعقاب مثيرة فيه روح العبودية . بينما ترتكز علاقات الشعب المسيحي بالله على المحبة التي يؤمن بها متجلية في يسوع المسيح ويشعر بها بديهياً تنمو في قلبه وتحثه على الاقتداء بشخص المسيح مثال حياته الاعلى . فالمسيحي حر لا تحدّ وثبته شريعة ، يستمد نهجه في الحياة

من خفقات قلبه المحب الحر .

تهدف المسيحية الى تحرير الانسان من كل نير يستعبده اذ منها ينطلق نداء ملح الى كل انسان الا يسترسل الى كل مقاوماته ومعطياته من وراثة وتقاليد وعادات وتأثير مناخ وبيئة وثقافة، بل ان يصهر قلبه في حب المسيح وان يتحرر من ذاته قبل ان يندفع في وثبته الحرة . وأما الجهد الذي تتقاضاه منه فهو لتبديل نفسه بايمان حقيقي يصدر الخير عنه كانما عن شيء طبيعي عفوي يتدفق عن المحبة وينتهي الى الحرية حرية ابناء الله الذين لا يخضعون الا لله ولا يمتثلون الا لأوامره ، لا خوفاً من عقاب ورهبة بل عن حب كأبناءٍ على مثال المسيح .

ويطلّ علينا المسيح من الانجيل بطلًا كما البطولة عند برغسون ، اي شخصاً نؤمن ونثق به طبيعياً ونحس اننا مندفعون الى حبه واعتماد نهجه واقتداء مثله الذي يفجر الخير اكثر من اقتدائنا بكلامه القوي على عذوبة . وفي الانجيل طائفة من النصوص ذات الدلالة المشرقة الى هذا الوجه البطولي في حياته : انا الطريق والحق والحياة ... انا نور العالم من يتبعني فلا يسير في الظلام ... ومتى ارتفعت جذبت اليّ الجميع .

ايتضح مما سبق ان المسيحي لا يخضع في حياته لشريعة ؟ في الواقع لا يخضع المسيحي خضوع العبيد بل كما الابن يلبي رغبة ابيه . فالاب والابن تجمعهما عاطفة حب ، تنبثق عن الاب الذي احب اولاً ، ولكن لكل حب مطاليب ، وكل حب يأمر ، انما يتميز امر مصدره الحب عن امر يلزم به ظالمٌ مستبد . فوصايا الله هي مطاليب حب متبادل ، تنكرنا للحب ان تنكّرنا لها ، لا اوامر زاجرة تقسر الارادة على العمل قسراً .

الانسان حر كما الله

ان في تشديد عالمنا على الحرية وقيمتها كانها القدرة على

خلق الانسان ذاته او كأن الانسان لا يوجد الا بالفعل الذي يخلق به ذاته او بنشاطه الخلاق للمستقبل ، عودة الى الروح المسيحية المنطلقة . فالفلاسفة المعاصرون لم يتخطوا في تمجيدهم الحرية ما قاله القديس غريغوريوس النازينزي : « كل شخص يكوّن ذاته باختياره الشخصي . فنحن نوعاً ما آباء نفوسنا ، لاننا نلدها كما نشاء » .

ترحب المسيحية كلّ الترحيب بما جاء عن الانسان في الكتاب المقدس انه صورة الله ، وتكتشف في هذا التعليم حقيقة جوهرية وهي ان كيان الله بذاته يستدعي ان يكون الانسان ، نوعاً ما ، بذاته . ما من شك اننا أعطينا الطبيعة والوجود ، انما تستدعينا هذه الطبيعة ان نفتحها بمؤازرة الله على قيم الوجود .

ويمتد مفهوم المسيحية للوجود الى مدى ابعد ، فهي لا تحصر جذوره في العالم بل تربطها ربطاً وثيقاً بكيان الله الذي هو قدرة خلاقة غير متناهية ، وبالتالي يتضاعف نتاجنا ونزداد قوة على اصلاح ذواتنا والعالم ، ونتوغل في عالم الحرية بقدر ما نشارك الله في قدرته الخلاقة . فالايمان بالحرية هو ضمناً ايمان بالله اي ايمان بان كل شيء لا ينتهي الى حتمية مادية لا مهرب منها ، وبان في بدء كل شيء حرية خلاقة .

يقول برديف : « ان الله هو ضمانة لحرية الشخص ، يحميه من استعباده للطبيعة والمجتمع ، وللملك قيصر ولعالم الواقع » .

انما الانسان غالباً ما يحيا في العبودية دون ان يدري ؛ واحياناً يستعذب العيش في القيود ويجهل هذا التوق الدفين في اعماقه الى التحرر . لا يحب الانسان الحرية . انه يجد دروبها وعرة المسالك ، اذ حب الحرية والتوق الى التحرر والانعتاق هما دلالتان على مستوى للانسان رفيع وعلى تحرر الانسان في اعماقه ورفضه العبودية وعيش الذل .

لكن في الانسان مبدأ روحياً مستقلاً عن المادة وحتميتها يدعوه الى التحرر والانعتاق . وما تحرير الانسان مطلب من مطاليب الطبيعة والعقل والمجتمع بل هو مطلب الروح .

وليست العبودية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالظاهرة الحيوانية والمادية في الانسان فحسب بل هي ذات صلات متينة بالظاهرات الروحية التي تعتريها هي ايضاً امراض جمة وخطيرة كفقدان الحرية والاحتكار الذاتي والاستعباد .

وما الحرية الا نصر على القوى التي تجعل الانسان حبيس نفسه وتحرره من كل معطياته المثقلة برواسب الوراثة والعادات والتقاليد وتأثير المناخ والبيئة الاجتماعية والثقافية ، هي نصر على الاوهام الكاذبة التي هي اقسى الاغلال في عنق الانسان .

وان العبودية التي يشعر الانسان بوطأتها من الخارج هي اوهى قيوداً من العبودية التي تغريه من الداخل وينتهي الى ان يحبها وتروقه صحبتها .

ولن يؤتى الانسان نصراً على رواسب العبودية الا اذا تجاوز ذاته وانعتق منها وشارك الله في كيان اسمى من كيانه الروحي .

فالايمان بالحرية هو حتماً ايمان بالله ، ايمان بذلك الينبوع المتفجر في اعماقنا نسمع صوته الناعم العميق الذي يستقرّ الله في مياهه المترقرقة التي لا تهدأ كما يقول كركيغرد .

فالانسان الحر لا يرضى بوضع لا يتبدل ولا يقنع بالنمو الطبيعي البيولوجي كالحيوان . ان قدرة الله فيه تدفعه الى نمو مطرد يقربه من الله فيحقق فيه رغبة المسيح في ان « نكون كاملين كما ان ابانا السماوي هو كامل » .

ما من شك ان البشر اجمعين لا يعيشون ملء حريتهم ، لكن

صلة الحرية بالله يشدد عليها كل الفلاسفة وحتى الملحدين منهم امثال سارتر الذي يتخيل الانسان كائناً يضارب على الالوهة .

انما لهذه الحرية حدود ، ولقد اصاب من قال : ان الطبيعة لا تسلس قيادها الا لمن خضع لهـــا اولاً . تُحدُّ الحرية اولاً وتستقطبها القيم التي لا نحيا بها فحسب بل نحيا حياة جديرة بالوجود ، والتي يتصاعد منها نداء الابطال المنحدر الينا من كل الوجوه التي طبعت الانسان بطابعها الخاص ، تمد ايديها بعضها لبعض من وراء العصور لانقاذ الانسانية من الرتابة والحياة النكرة ولبعث الحياة الحقيقية في كل خلاجات الوجود .

وتقدّر المسيحية هذا النداء ايما تقدير وتحتفي به احتفاء فريداً هو احد ميزاتها الخاصة ، فالمسيح هو النداء الذي يتحدر الينا من ذرى الكمال ، والله نفسه نتعرف اليه في الانجيل اباً لا كأب « البسيكانليز » المخيف الذي يكبت شخصية الولد ويحول دون تفتحها ، بل هو الاب المثالي الذي يحبه الابن ويعجب به ويقتدي بمثله ويتخذ عنه القيم . « وفي محيطنا الحضاري يكتشف الولد القيم دون شك في شخصية الاهل » .

فالحرية ليست قوة فوضوية بل هي تتجه بحد ذاتها نحو القيم : نحو الحق والجمال والخير .

وقد نبدو في مأزق منطقي حرج يزجنا فيه التهديد الذي تتعرض له حريتنا الخاضعة لتوجيه سابق . فنلاحظ اولاً ان القيم لا تؤثر في ارادتنا تأثيراً لا يقاوم ، واننا نستطيع ان نرفضها بدافعين : دافع جبانة ودافع كبرياء .

يقول « دوستيفسكي » : ان الانسان يلقي بسرعة مدهشة عبء الحرية عن كاهله ، وقيل ايضاً : ان الانسان لم يخلق حراً بل وهب القدرة على انتزاع الحرية وتكوينها . ففي الواقع ليست الحرية عطية مجانية خصتنا بها الطبيعة ولنتمتع بها في هدوء

وطمأنينة ، بل هي نعمة يجب ان تكتسب بالتفكير والجهد. وليس حراً الانسان الذي تخوله الشجاعة على تنظيم حياته في وعي مسؤوليته الكامل. فكثيرون يسترسلون في كسل وجبانة الى رتابة الحياة ، وسيرها اليومي القاتم ، فاذا بدفة حياتهم تفلت من بين ايديهم ، ويندمجون في تيار الحياة النكرة يتقاذفهم كيفما يشاء. انما الحرية لا تنشأ ميتة في جماهير الانسانية. فكل انسان أيّةً كانت البيئة التي يعيش فيهـا ، ينعم بهامش من الاستقلال له طابعه الخاص ، واختياره الخاص ، يثير فيه بعض التفكير الذاتي.

وتدفع الكبرياء ايضاً الانسان على رفض نداء القيم ، كبرياء الرجل النتشي والوجودي وكبرياء اللسفوري. لماذا لا نكسر النير ونحطم القيود ، ونعصي كل امر ، ونأخذ زمام القيادة في عالمنا الصغير. وغالباً ما تدفعنا الكبرياء التي هي موت للحرية الى رفض القيم والله وجوهر الحرية ، اذ موقف الانسان امام حياته اشبه بموقف الفنان امام لوحته فلا يحق له ان يشوهها حسب هواه. بل عليه ان يأخذ بقواعد الفن.

والمسيحية التي تدعو الى احترام حريتنا والمحافظة عليها من حصار اعمى تحذّرنا في الوقت نفسه من الغلو والركون الى الحياة الحيادية السلبية التي هي تنازل عن الشخصية. ان الحرية هي الامانة للدعوة للخط الذي انتهجناه في الحياة. ولقد قال الانجيل: من اهلك نفسه يجدها. ونحن ان أمتنا حريتنا على مذبح الالتزام للقيم نجدها ونجد معها امنية الوجود.

تقديس الحقيقة

واحد في طليعة المواقف التي يجب ان نقفها في حياتنا الروحية هو تلبية دعوة المسيح لنا الى الحياة «بالروح والحق». «ولكنها

تأتي الساعة حيث العابدون الحقيقيون يعبدون الآب بالروح والحق، فعلى مثال هؤلاء يريد الآب عابديه » (يوحنا ٤ : ٢٣) .

عبادة الله بالروح والحق تستنفر كل امكانات الانسان لخدمة الله وتشق له نهجاً في الحياة ارفع منه مستوى ، ولكنه مع ذلك يدعوه دعوة ملحّة . ما التأمل في الله تقنية يمارسها بعض الاخصائيين ، هي ثمرة الروح المتطلع الى الله العابد بصمت في نشوة العجب .

عبادة الله بالروح تنحدر بالله الى حياتنا الراهنة وتمزجه بمختلف اعمالنا ، مُنَسِّقَةً بين الصورة التي يراها لنا الناس من الخارج وصورتنا التي يراها هو « فاحص الكلى والقلوب » . « لا بل نتكلم كخدام اختبرهم الله قبل ان يأتمنهم على الانجيل ، لا كمن يبغي رضى الناس ، بل رضى الله الذي يختبر قلوبنا » (١ تسالونيكية ٢ : ٤).

وبما أن الله هو الحقيقة بالذات ، فأول صفة يجب ان نقتبسها عنه هي تقديس الحقيقة : « اما الله ، فنحن ظاهرون له ، وارجو ان نكون ظاهرين في ضمائركم » (٢ كور ٥ : ١١) . انما يصعب ان نصوغ في قواعد ثابتة كيفية السلوك الحقيقي في الحياة وفي تصرفاتنا بالبيئة والجماعة التي ننتمي اليها ، وتجاه الله (الذي يرى في الخفية) . تحديدها هو تفكير متواصل يقوم به كل فرد على دروب الحياة . يتطلب حبنا للحقيقة ان نرضى بكياننا ، بما كوّنته منا الظروف ، والوراثة والطفولة ، والمحيط والدروس السابقة ، وان نستعين للتعرف على ذواتنا بكل الكشوف الجديدة المتطورة لنفجّر دوماً افضل ما عندنا من طاقات .

ان نكون مع الحقيقة هو ان نُغْضِبَ الناس احياناً ليرضى الله ، ان نتحرر من كل الميول الضالة التي تمالىء المحيط الذي نعيش فيه : « فليكن كلامكم نعم، نعم، لا ، لا » (متى ٥ : ٣٧) .

تجنب الكذب ليس بالامر السهل ، في هذه الشبكة من العلاقات

الاجتماعية والادارية التي بلغت حداً من الكثافة امتص الهواء من حياتنا . ويا طالما اخذتنا رغبة عنيفة بان نتفلت من خيوط هذه الشبكة لنؤمِّن للحرية مداها الحيوي الادنى .

كيف يمكنك ان تحصل على يوم او على بضعة ايام عطلة تستريح بها ، اكثر من العطل القانونية ؟ ان تُصرّح بالحقيقة ، ان تشرح الاسباب الاكثر شرعية التي تجيز لك الراحة ، يعرّضك الى نقمة الرؤساء الذين هم مثلنا يتخبطون في خيوط الشبكة . اما ان تلجأ الى وسيلة مألوفة ُمدّعياً مرضاً واهماً ، فاذا كل شيء يضحي شرعياً ، وان كذبت ، وتعطى الاجازة .

ولن تدرك الحقيقة على مستوى المطلق ان لم يتآخ الله والحقيقة ويتآلفا . واذا تمت الالفة بينهما تضحي كل اكذوبة ، وان لم تلحق أذى بانسان ، اساءةً الى الله والى عظمة الانسان المطبوع على حب الحقيقة ، عندئذ نصمم على قول الحق مهما عقّد قوله الاوضاع ونتمسك به سلاحاً من نور شهادة نؤديها لايماننا وسط هـــذا العالم .

لا يجدينا شيئاً ان نسوق الامثلة كثيرة بل الافضل ان نطلب الى كلمة الله ان تكشف عظمة السعي المطلق وراء الحقيقة : « لقد ولدت وجئت الى العالم لاجل هذا ، انا اشهد للحق » قال المسيح لبيلاطس .

ويجب ان تتجسد عبادتنا للحقيقة في اعمالنا : « وانا اقدس ذاتي من اجلهم لكي يكونوا هم ايضاً مقدسين بالحق » (يوحنا ١٧ : ١٩) فالانجيلي يوحنا هو رسول الحقيقة التي هي الله : « لكي نعرف الله الحقيقي » (يوحنا ٥ : ٢٠) ويبدو المسيح في انجيله مملوءاً نعمة وحقاً ، ويحدد رسول المسيح الينا انه « روح الحق » وتنبعث من هذه الحقيقة روح المقاومة للعالم الذي لا يقبل بروح الحقيقة لان معلمه « كذوب وابو الكذب » .

« الحقيقة تحرركم » . هذه العبارة تنطبق كل الانطباق على من دعا نفسه « انا الطريق والحق والحياة » فالمسيح هو الذي يحرر . والحقيقة هي علـَم على درب النعمة ودلالة على حضور المسيح .

عبّر « آلان باتون » ، في كتابه الجميل ، « ابكي يا بلدي الجميل » باسلوب شيق ، لا ينمحي من البال ، عن هذا التحرر بالحقيقة ، وجاء فيه ان المحامي « جرڤيس » الابيض الذي كرس حياته لخدمة افريقيا الجنوبية قد اغتيل وَوُجِدت على طاولته وصيته التي تقول :

لن اتساءل : أأرتاح لهذا الشيء ام لسواه ، بل اسأل فقط أهو عادل . وذلك ، لا لاني شريف ، متجرد ، انهج في تفكيري هذا النهج ، بل لان الحياة تتخطانا ولاني احتاج لما تبقى من حياتي الى نجمة لا تخونني ، الى بيكار لا يكذب . ولا اعمل هكذا لاني احب العبيد وأكره عرقي الابيض بل لاني لا اجد فيّ قدرة على اتباع اسلوب يختلف عنه نهجاً واتجاهاً سويـًّا . اضيع اذا ما قارنت بين هذا الاسلوب وغيره من الاساليب ، واذا ما سعيت في اعمالي الى ارضاء السود والبيض ، الانكليز والافريقيين والوثنيين واليهود . سأحاول ان اعمل ما هو عدل وان اقول ما هو حق .

لا اسلك هذا السبيل لاني شجاع وصادق بل لاني اضع بهذه الطريقة الوحيدة حداً لنزاع نفسي العميق ولاني لا اقدر ان اتطلع الى المثل الاعلى وفي حياتي جزء يخون . افضل الموت على هذه الحياة . لقد فهمت الآن كل الذين ماتوا من اجل معتقداتهم . اني لا اجد في موتهم ما يثير العجب الكبير ويرمز الى اسمى معاني النبل والشجاعة . لقد فضّلوا الموت على طريقة من الحياة زائفة . هذا هو كل شيء » .

لقد ادرك « جرفيس » في صميم المعركة معنى كلمات الرب : « الحق يحرركم » ومما يحررنا ؟ من مركبات النقص ، مما يقال

عن اليمين وعن اليسار ، يحررنا من نتائج النجاح او الاخفاق ومن كل ما يزيغ الضمير .

كتبت تريز الطفل يسوع : لن اعمل كبيلاطس ، الذي رفض ان يستمع الى الحقيقة . لقد قلت دوماً للاله الصالح : يا إلهي اريد ان اسمع لك ، فارجوك ان تجيبني عندما اسألك بتواضع : ما الحقيقة ؟ اجعلني ارى الاشياء على ما هي والا يبهر عيني شيء » .

ان تكريس حياتنا الشخصية واعمالنا الجماعية للحقيقة يعكس الله وكلمته في قلوبنا ويجعلنا اهلاً لاداء الشهادة . فنحن لا نعطي الحقيقة كما تُعلّم العقيدة ، لانها لا تنبثق منا بل من الله . وما نحن الا ناطقون باسم رسالة نستمع اليها قبل الجميع . ولسنا نحن آلة ناطقة . فوزن كلمتنا ومداها صادران مباشرة عن نوع الحياة التي نعيشها . ايجرنا هذا السعي وراء الحقيقة ويسد ما بيننا والعالم ، فلا نعود نبصر كهؤلاء الذين لا يتطلعون الى شيء لان الحقيقة في حوزتهم .

شيء ان ننفي وجود الحقيقة وان نزعم ان الحق اليوم سيصبح في الغد بُطلاً ، وشيء آخر ان ننشد الحقيقة كواقع غير جامد ، لم نكتشف وجوهه كلها فنعاني في سعينا اليه مشقة وعناء .

يقول بولس السادس : « لينشأ من يتوق ان يكون ويثق الصلة بالمسيح ، شاهداً امام العالم للحقيقة التي تحرر وتفتدي ، في عبادة الحقيقة في كلامه كما في اعماله سواء بسواء وبالتالي ان ينشأ على الصدق والاستقامة والامانة والتماسك الذاتي » .

ومن يدعي انه بلغ نهاية المطاف ؟

كرامة الانسان

لا احد ينكر ان كثيراً من روافد الكرامة الانسانية تنبع

من قلب المسيحية . اذ ليس من السهل ان ينتهي الانسان في الابدية . وليس سواء لدى نقطة الماء التي تتساقط على التلال ان تتبخر او ان تنحدر الى البحر وتذوب في عبابه . لو خيّرت لاختارت ان تكون ماءً في البحر لا بخاراً يتصاعد في طبقات الفضاء . وان كانت الحياة تربة تنبت فيها بذار الابدية ، فكم ينبغي على الانسان من المهد الى اللحد ، ان يُعِدّ هذه التربة ويتعهدها حرثاً وسقاية ليأتي الزرع نامياً وافر الجنى .

لا نريد ان نشدد على تعليم الكنيسة في هذا المجال ولا ان نسوق طائفة جليلة من النصوص نستقيها من تعاليم البابوات ، مبتدئين ببيوس الثاني عشر ومنتهين الى بولس السادس ، معرّجين في دربنا على يوحنا الثالث والعشرين . سنلخصها في نص مشرف لبيوس الثاني عشر يوجز جملة هذه التعاليم وينبض بروحها . يقول بيوس الثاني عشر : « اذا اردتم ان تشرق نجمة السلام على العالم ، ابذلوا قصارى جهدكم لينال الانسان الكرامة التي وهبه الله اياها منذ البدء . ان معنى وجود المجتمع وغايته الجوهرية هما المحافظة على الانسان والعمل على تنمية شخصيته وتكاملها » .

لا اظن مطلق تعليم يعلن مثل هذا التعليم ، كرامة الانسان ويؤكد مثله بقوة عليها . انما يعسر علينا ان نجسّد واقعاً هذه التعاليم في علاقاتنا اليومية بالغير . ويمكننا القول ان إغراءها وألقها يخبوان كلما ازداد احتكاكنا بالاشخاص الذين نعاشرهم وتوثقت معرفتنا بالدوافع الخفية التي تحرّكهم في الحياة .

كتب رادتشاف مؤسس الانتلجنسيا الروسية : « تنوء نفسي تحت ثقل الآلام الانسانية » . لكن احد تلامذته بتروشافسكي اضاف ببراءة : « لا اجد في الوجود شيئا يأخذ بمجامع فؤادي ، بين الرجال ولا النساء . لذلك اقصر قواي على خدمة الانسانية » . ان في هذا الكلام لنموذجاً جميلًا للحب البعيد لا للحب القريب الذي يغمر الاشخاص فرداً فرداً .

يجب ان يكون حب الغير المتواصل الحقيقي امراً صعباً حتى ليجعل المسيح منه وصيته الخاصة الى تلاميذه : « فانكم ان احببتم من يحبكم فاية منة لكم ، فان الخطأة يحبون من يحبهم ؛ وان احسنتم الى من يحسن اليكم ، فاية منة لكم فان الخطأة هكذا يصنعون » (لوقا ٦ : ٣٢ – ٣٣) .

رسالة المسيحي في عالمٍ يَطغَى على الشخصية الانسانية ويضيف عليها أفق الوجود ، هي تحقيق فكرة الله في الانسان ونقلها الى حيز العمل هذا الانسان الذي يزدان دون سائر اخوته في الانسانية بصفات خاصة تصوغ منه شخصاً فريداً في الوجود ، لا ينتظم في القطيع الانساني ولا يساق معه كما تساق الماشية .

ان الله يحب جميع ابنائه ويحترمهم لا يميز بين ابيض واسود ، اسيوي او غربي ، خير او شرير مؤمن او غير مؤمن ، مسيحي او غير مسيحي . المسيح مات حباً لجميعهم على السواء . فعلى مثال الله علينا ان نشعرهم ان الله اب لهم وانهم خلقوا على صورته ومثاله ودعوا لان يكونوا ابناءه .

لا تستوعب دفعة واحدة هذه الحقيقة السامية ولا نفيد منها شيئاً ان جابهنا بها ابن الشارع مجابهة صريحة . ستبقى قليلة الجدوى ان لم يهيأ لها ما يلائمها من جواء وان لم نبدل نحن نظرتنا الى الشخص الذي نقترب منه والذي يجب ان يشعر اننا ننظر اليه نظرتنا الى كائن فريد ، ذي نسخة واحدة لن يجدد طبعها منذ ان كان العالم عالماً . ويؤكد « لمورياك » هذا الطابع الخاص الذي لا يستبدل ، في كل خليقة انسانية مهما كانت وضيعة « ان كل فرد يمكنه ان يكون بطلاً لمأساة الخلاص التي تنحل عقدتها في الابدية » . يجب ان يقرأ في عيوننا كل فرد نلتقيه ما اكتشفه « مورياك » ان يرى فينا هذا النظر المندهش الذي يبعثه حضوره في عيوننا . ويجب ان يتحول هذا النظر الى عمل يعبر عنه تعاوننا الاخوي .

يلازم النقص كل شخص مهما تطور وينتابه الوهن . وبالتالي يفتقر دوماً الى يد تمد اليه وتزيده انسانية واتساعاً في ابعاد ثلاثة : تحثه على اتخاذ قرارات يتزايد عددها يوماً بعد يوم وتلزمه في الحياة ؛ وعلى انشاء علاقات حقيقية مع الغير فيكون معاً متواضعاً وذا دور بهي في الحياة ؛ وعلى الانفتاح على حقائق مطلقة تسمو الانسان .

وتنحصر غايتنا كمسيحيين منضوين في الحياة الاجتماعية والسياسية في حمل الغير على تحمّل المسؤوليات والاختيار الواعي الذي يضمن لهم حريتهم وكرامتهم . لا يستسيغ الضمير المسيحي الانسان غرضاً تتقاذفه كما تشاء اوضاع الحياة وظروفها المتبدلة ؛ ولا يتفق مفهومنا للناس وسلبية تلزمهم بحياة فرضت عليهم فرضاً لا يملكون حتى القدرة على الرضى بها .

كتب سيمون ويل : « أن تُربي انساناً ولداً كان ام يافعاً هو ان تعيد اليه اعتباره اولاً امام نفسه . ولا تكفي نظرة احترام عميقة نكلأ بها الاشخاص لتحقق كل ابعاد حياتهم . واجبنا تجاههم هو ابعد مدى يدعونا الى مساعدتهم ليصلوا الى بُعدهم الاجتماعي » .

محبة الشخص هي ايضاً ان تؤمن له جماعات قريبة منه يعيش فيها عيشاً انسانياً شريفاً . فلمجتمعنا الحاضر على مختلف درجاته معطيات ثابتة يجب ان نعيدها اليه ، لن تغني عنها المطالبات بالحقوق المهضومة وبزيادة الاجور وتمديد الفرص . علينا ان نزوّد كل مشروع عمل بهيا كل يستطيع ان ينمو فيها الفرد وسط الجماعة ، ان نُعِدّ لكل بيئة الحقل الحر الذي يمتن العرى بين مختلف الاشخاص ، فنمهّد السبيل بعملنا هذا الى تطوير الشخص الانساني أمل ان تتاح له مشاركة افضل في نقابية فعّالة والتزام سياسي او اجتماعي .

تتطلب الحياة الروحية ذاتها هذا البُعد الاجتماعي الذي هو

ضرورة لكل انسان يسعى الى تحقيق وجوده في الحياة . ولا شيء ألزم للعمل الرسولي من ان تتحول الرعية الى جماعة حقيقية مؤلفة من ابناء لله يدركون طبيعتهم والربط التي تشدهم بعضهم الى بعض تختلف كل الاختلاف عن سيارة يصعد اليها من يشاء من الافراد يدفع اجراً ثم يدق جرساً وينزل وفيها الكهنة سائقون وجباة اموال . من الاكيد ان الكمال يسهل على الشخص الانساني في رعية هي تجمع ابناء الله . اذاً شغل المسيحي الشاغل هو ان يعيد روح الجماعة الى الجماعة التي يشد اعضاءها بعضاً الى بعض رباط النعمة الالهية والاخوة التي تنبعث منها .

ولكن كيف نخدم هذا الشخص الانساني ونحبه بما فيه من ضعف ووهن . وسيلتنا الوحيد الى الخدمة المجدية هي التأمل . فبقدر ما نفكر ان الله احبنا ونردد لذواتنا آلاف المرات : « انه احبني وبذل نفسه من اجلي » . نعتاد التأمل بحضور الله في الاشخاص الذين يحيطون بنا ، وبالغنى الذي اغدقه عليهم المسيح المصلوب الناهض من القبر . حينئذ يتبدل الميزان الذي به نزنهم ويتبدل ما نضع في كفة الميزان ، فنضع بدل الضعف الانساني قيمتهم الالهية ، هكذا يزداد حسناً بكرامة الشخص الانساني ويتعافى من كل ضعف ووهن . الله وحده هو الذي يفيض في قلوبنا المحبة ويستطيع ان ينمي فينا احترام الانسان وتقديس كرامته .

واريد ان اذكّر قبل ان انهي هذه الخطرات في كرامة الانسان بالمبادىء التي تكفل هذه الكرامة وتخلق لها مناخاً تستطيب فيه العيش الشريف .

على من يريد ان تطلع نجمة السلام على العالم ان يشاطر باعادة الكرامة الانسانية التي اعطاها الله للانسان منذ البدء .

ان يقاوم تجمع البشر المتزايد الذي يخنق فيهم نسمة الروح ويزعزع استقرارهم الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والفكري

والاخلاقي ويضعف مبادئهم الثابتة ومعتقداتهم القوية ويثير غرائزهم .

ان يساعد بكل الوسائل الشرعية وفي كل حقول الحياة الهياكل الاجتماعية التي تعتمد المسؤولية الشخصية وتؤمنها سواء في النظام الزمني ام الروحي .

ان ينمي احترام حقوق الانسان الاساسية ويضمن ممارستها العملية كالحق على تغذية وتنمية الحياة الجسدية والعقلية والاخلاقية ، والحق على ثقافة وتربية دينية ، والحق على عبادة الله ، والحق على الزواج والحياة العائلية ، والحق على العمل كوسيلة لاعالة العائلة والحق على اختيار الدعوة .

التعليم الاجتماعي

قال ماركس : الدين هو افيون الشعب . هذه خرافة تخطاها الزمن . توقظ الديانة اذا ادركت في ادق خطوطها ووجهها الاكمل وفي كل مدياتها الخيرة الانسان الى قواه الدفينة ، وتشد ازره في عمله الزمني ، وتضع الاساس الامتن لتجديد النظام الاجتماعي ، وتزود المسيحية هذا العالم الدائب على نشدان الحقيقة والعدالة والذي تنظمه التقنية ، بما يحتاج اليه من مزيد الروح ...

لكننا لا نزعم ان المسيحية هي مؤسسة اجتماعية واقتصادية ذات اهداف زمنية او هي ايديولوجية بين مختلف الايديولوجيات الاقتصادية والاجتماعية التي نجد لائحة بها في كل بحث عن الاقتصاد ، تطلع علينا كانها العدو الاول للشيوعية الماركسية والخصم الاعنف المتأهب دوماً لمجابهتها والحد من زحفها . عدو الماركسية ذات الاقتصاد المحدود والجماعي هو الرأسمالية الحرة لا المسيحية . فالمسيحية ليست نظرة اقتصادية بل ديانة تحتوي على خلقية مستمدة من الدين . فمن الخطأ ان نظهرها دوماً عدوة

الاشتراكية تناصبها العداء في مختلف مجالاتها ومفاهيمها الحياتية .

تذيع الاشتراكية مفهوماً للاقتصاد لا يمت في ذاته ، باية صلة الى الايمان والحياة الابدية . انه اتجاه اكثر منه مذهب محدد الخطوط والعالم . ومن المعقول ان تكون الوسيلة الوحيدة لانقاذ الاقتصاد وتحقيق اوفر نصيب من العدالة والمساواة بين الخطوط الحياتية في وقت سريع تصميماً واعياً واشتراكية جريئة لبعض الخدم الرئيسية المرتبطة بالجماعة كلها او لبعض الصناعات الاساسية وذلك في بعض المناسبات والاوضاع وخاصة في بعض البلدان النامية الحديثة العهد بالاستقلال ، العابرة عبوراً مفاجئاً من اقتصاد اقطاعي الى اقتصاد معاصر .

رجل الدولة والاقتصاد ، لا عالم اللاهوت هو الذي يحدد النظام الاصلح المناسب لاوضاع البلاد الاقتصادية . وموقف خطر هذا التخوف من الاشتراكية الذي يلازم بعض البيئات المسيحية ، فيبدو فيه الدين المسيحي كانه قوة سلبية محافظة تحد من المد الاجتماعي .

ويجسّم لنا خطر هذا الموقف ، وعينا للطاقة الايجابية الزاخرة في قلب المسيحية ، القادرة ان تقوّم اوضاع عالمنا المضطرب شرط ان تتصدى لاسباب الفوضى الحقيقية وتحاربها في جذورها ، والتي يهدرها بعض المسيحيين المتخوفين من معالجة شؤون الزمن بروح علمية رصينة منفتحة . واننا لنتوقع دوماً الاسوأ ، واضطراباً لا يهدأ للأمن من اوضاع تكرس هذا التفاوت الصارخ بين طبقات المجتمع على صعيده الاقتصادي والاجتماعي . وفي النهاية لا تكمن ازمة العالم الحاضرة في الشيوعية ومبادئها الخطرة بل في الفوارق الاقتصادية والاجتماعية التي هي مثار كل ازمة ونقمة في الشعب .

ثم يجب ألا ندع العالم يعتقد ان الكنيسة تحلل الحل العملي الوحيد للقضايا الاجتماعية ، فنحولها هكذا من جديد الى مذهب

اقتصادي . ان القضية الاجتماعية متسعة اتساع العالم لا يحلها انسان ولا منظمة ولا دولة منفردة وخاصة لا يستطيع المسيحيون حلها، على ما هم عليه من رهافة حس اجتماعي ، لانهم قلة بين البشر . كيف نريد مثلاً ان تحل المسيحية مشكلة الجوع في الهند ، او مشكلة البطالة في بعض البلدان . ومن الخطأ ان نتوهم الحلول مكدسة في جيوبنا – اذ الحل الكامل للقضية لم تتوفر الى اليوم عناصره – فنركن الى الكسل والخمول ، مطمئنين الى الحقيقة التي نزعم اننا نملك ، متجنبين العمل الصبور الشجاع المنتج .

وتعاون المسيحية بثلاث طرق في اشاعة الحقيقة والعدالة في العالم . اولاً : بطاقتها الروحية والادبية ؛ ثانياً : بمفهومها الرفيع للانسان والمجتمع او بتعليمها الاجتماعي؛ ثالثاً: بعمل المسيحيين الاجتماعي.

المسيحية خلقية اجتماعية

النضال هو في جوهره نضال من اجل هدف روحي واخلاقي ، غايته توفير الرفاهية للانسان وخاصة توطيد الصلات بين الانسان والانسان ، وتأمين نصيب له من الحقيقة والعدالة اوفر ، وخلق تساوق بين العلاقات الانسانية وتحقيق توزيع اعدل لخيور الارض وبكلمة موجزة بناء عالم دعائمه احترام القريب وحبه لا المال وسيطرته .

وتشدد المسيحية في بدء تعاليمها على اولوية الانسان على المال والمادة معلنة ذاتها رسالة حب ، واجبها الاول ان تعلّم العالم محبة الله متجسدة في شكل محسوس هو محبة القريب .

« ايها الاحباء لنحب بعضنا بعضاً فان المحبة من الله . وكل من يحب فهو مولود من الله ويعرف الله » . ان قال احد اني احب الله وهو يبغض اخاه فهو كاذب : فمن لا يحب اخاه وهو يراه فلا يستطيع ان يحب الله وهو لا يراه . اجل هذه الوصية التي منه : من احب الله فليحب اخاه ايضاً » .

والشجرة تعرف من ثمارها يقول المسيح . في انجيله ايضاً . وثمار كلمة الله هي المحبة والفرح والسلام . انما لا سلام ثابت حقيقي حيث لا عدالة حقيقية .

ولم تُؤتَ المسيحية عبر التاريخ حظوظاً في خدمة الانسان وتحمير قوى الانسانية اوفر من حظوظها في هذه الحقبة من سير الزمن ، وبالتالي لن تكون خيانة المسيحيين للمسيح ومبادئه اشد خطراً على المسيحية والانسانية من خيانتها له في هذا المنعطف من تاريخ البشرية . اذاً لا يحق للمسيحيين ان يكونوا الغائبين البعداء عن العالم ، المتفرجين ، المنتظرين بحذر وفطنة نهاية المعركة . وادهى من ذلك ان يكونوا المحافظين المسهمين بسفسطات ماهرة في ترسيخ جذور الكذب وقلة العدل في العالم .

يجب ان تنمي المسيحية في جوارها مع العالم مُناخاً عند المؤمنين وخلقية اجتماعية ذات طابع ايجابي دينامي لا يقتصر في حقل العدالة على بعض الوصايا السلبية ، كمثل : لا تسرق ولا تُؤذِ الغير في صحته ولا تُرهق الارملة واليتيم . هذا الوجه السلبي لوصية وتعليم لا تعدلها ايجابية تعليم بين التعاليم هو صورة هزيلة شوهاء « احبب قريبك كنفسك وأرِدْ له ما تريده لها » . حقيقة تفجّر قوى ايجابية هادرة تقلب مفاهيم العالم البرجوازية رأساً على عقب .

إن الخلقية المسيحية في جوهرها العميق هي خلقية حب حقيقي تحثنا على حب جميع البشر وعلى ارادة الخير لهم كما نريده لنفوسنا . لاننا كلنا اخوة وابناء الله . وتتركز كلها على مفهوم اسمى للشخص الانساني الذي ترى فيه ابناً لله ذا مصير خالد . ويوجز هذا الاعتراف بالانسان وبقيمته الخالدة الخطوط الكبرى للخلقية المسيحية التي تقول بالامانة الزوجية لمدى العمر (لان الحب الخالد الذي لا تفصم له عروة يجدر وحده بكائنات خالدة) وبحب الولد (لان كل كائن انساني حي ، مهما كان ضعيفاً ، هو

شخص مقدس) . وباحترام الحقيقة المقدسة ... وتعتبر ما يقول بيوس الثاني عشر : الحقيقة والعدل والمحبة اعمدة المجتمع الانساني الثلاثة .

وتقول الخلقية بواجب ايجابي يحقق بقدر ما يتاح للتقنيات الصناعية والادارية توزيعاً اعدل لخيور الارض وعوناً صحياً اجدى فاعلية او كما يقول بيوس الثاني عشر تطبيباً ارقى نوعاً وفي متناول الجميع وامتداداً للتربية والتعليم الى كل طبقات الشعب وبنوع خاص اصلاحاً للمقومات الاجتماعية التي تكفل مساواة اكبر بين مختلف طبقات المجتمع .

وبما ان المسيحية ليست ايدولوجية اقتصادية واجتماعية محددة بل هي خلقية ترتكز على مفهوم سامٍ للانسان ، فهي لذلك ذات خصائص فريدة تصلح لمعالجة اوضاع عصرنا .

اولاً : تنظيمها لسلوك الانساني على مبادئها الاخلاقية لا يخنق الحرية كما يزعم ماركس ويلجم التقدم اللهم الا اذا عادلنا الحرية بالفوضى والخلاعة . فمن البديهي ألا تجيز كل شيء ، لان من اهداف كل خلقية ان توجه وبالتالي ان تقنن . فمن الضلال ان نعتبر القانون الخلقي الذي هو توجيه وتقنين عائقاً للحرية . فمنع المسيحية قتل القريب ولو ادّى ذلك القتل الى تقدم البيولوجيا والطب ، وتحريمها استعباد الشعوب ، حتى ولو ضمّن هذا الاستعباد مدى حيوياً أرحب ، لا يبرهنان على حدها الحرية ووثبة التقدم .

ثانياً : مرونتها التي تفرق بين نظام الغايات ونظام الوسائل ، وتعرف ان اعترافاً اوفى للانسان بالانسان يستدعي في نظام الوسائل اصلاحات عميقة الجذور وجمة ، وثيقة الصلة ببنيان العالم الاقتصادي والاجتماعي ، وتعي ان الحلول الصحيحة لا تنبثق عن نظريات بادية الجفاء مع الواقع بل تستوحي الاختبار والتقنية وتتحسس دوماً بالحياة ... ان التمييز بين الغاية والوسيلة اساسي

في محاولة بناء الانسانية . فكل التباس بين هذين النظامين يحجر الفكر ويثير تعصباً ذميماً . ومن اخطاء الشيوعية الكبرى تقريرها لوجهة سير التاريخ ، وللاطوار والمراحل التي يجتازها تحرير الجماهير (كالحرب الطبقية ودكتاتورية البروليتاريا ، والمجتمع غير الطبقي) من غير ان تلجأ الى الاختبار والاستئناس بالواقع الحياتي . لا احد يدرك مدى النتائج المشؤومة التي يجرها على الانسانية تعصب متحجر وثائر في هذا المضمار .

ولذلك تؤثر هذه الخلقية المسيحية الاجتماعية النظام على الفوضى ، والتطور بالطرق الشرعية على الثورة والهول ، لا ترضى ان تضحي باجيال كثيرة في سبيل نظرية الانسانية الفضلى ، اذ الهول يطلق الهول وينحدر بالانسان الى مستوى الحيوان ولا يكفل ان يكون العالم المرتقب اقل شراً مما سبقه من عوالم .

وهذه الخلقية الاجتماعية المسيحية هي وضعية وديناميةلا تعرف الجمود والركود عدويّ التقدم والتطور والخلق . واي شيء في هذا الوجود هو اكثر حيوية ودينامية من هذا الاهتمام المحب الداعي بالانسان ؟

تتجلى الخطوط الكبرى لهذه الخلقية المسيحية بكل اجزائها في نظرتها الى الانسان كائناً حضارياً ذا حق ، على العمل والملكية مؤمناً بافضلية الخير العام وتطور القانون ، ويتلازم في السياسة خدمة للقيم .

الانسان كائن حضاري

بين الكائنات التي تملأ الكون ، الانسان وحده هو كائن حضاري ، يصنع تاريخه . فلا الذرات ، والالكترونات ولا النحل ولا السنونو تصنع التاريخ لانها تحافظ دوماً على النهج الذي نهجته في الحياة من بدء تاريخها في الوجود . صلاتها بالتاريخ

واهية لا تبنيه ولا ترصف مداميكه . اما الانسان فهو وحده الكائن التاريخي الذي تمتد تاريخية جذورها في كيفية كيانه الخاصة .

ان الانسان تزاوج جسد بروح ، ويبدو لذاته روحاً متجسدة . ونقول عنه في احدى تعابيرنا الحديثة : انه كائن لا يكون ذاته الا اذا انطلق منها الى مدى ارحب ، لا يجد في العالم المادي عائقاً لانفتاحه الروحي ، بل موطن ارتكاز لتقدمه وانعتاقه .

وفي المادة يمارس نشاطاته الاكثر روحانية : اذ لا علم دون مختبرات ، ولا حياة فلسفية دون مؤلفات فلسفية ، ولا حياة فنية دون تحف فنية ، ولا موسيقى دون آلات موسيقية ، ولا شعر دون لغة ، واخيراً لا حياة خلقية دون اعمال خلقية . تعجز النيات الحسنة عن صياغة الانسان الصالح .

ما قلناه عن الانسان كفرد ينطبق عليه ككائن اجتماعي ، فيجب ان يتجاوز اعتراف الانسان بالانسان الكلمة الرفيعة والعواطف الجميلة الى تحقيقات اقتصادية واجتماعية .

يميز علماء الاجتماع المعاصرون بين الصلات الشخصية بين انسان وانسان ، (كالحب الذي يتخذ الشخص الآخر موضوعاً مباشراً له) والصلات الموضوعية التي تدخلها عناصر موضوعية (كالعلامات وكالخدم ، والعمل المشترك) لتعمل على تقوية الصلات الشخصية وتعاون على تفتحها العقلي والروحي . ليس الانسان الاجتماعي روحاً محضاً بل هو من لحم وعظم .

وبكلام آخر ، لا يستطيع الانسان انماء حياته الروحية وتكثيفها الا اذا أنسَنَ العالم وحوله الى عالم متحضر . ولا تتكامل الحضارة في معناها الذاتي اي حقل الذات ، وغرس بذار النبل والكرامة دون الحضارة والرقي بالمعنى الموضوعي ، اي دون مجموع الكشوفات الموضوعية ، كالتقنية والفن ، واللغة والكتابة ، والقانون والانظمة الاجتماعية التي يبدل بها الانسان

العالم ، مكيّفاً اياه على مقتضى حياته .

ان بين الحضارتين الذاتية والموضوعية صلة ثابتة وتفاعلاً متبادلاً . فالانسان يُحضّر عالم الطبيعة الخام ليحقق حياته الروحية ويحررها . ولهذا هو كائن تاريخي . وليس التاريخ خليطاً من احداث لا يربط بينها رابط . اننا لنلمس في اعمق طبقات واقعه اتجاهاً ومعنى هو تحرير تدريجي للانسانية ، هو جهد الانسان المستمر نحو انسانية افضل واسمى في عالم انبل واشرف .

ويستلزم هذا التحرير الدائم للانسان ثلاثة شروط :

اولاً : معرفة اعمق للطبيعة ، وسيطرة عليها اوسع مدى ، يسلمنا زمامها العلم الوضعي والتقنية الصناعية .

ثانياً : اعترافاً اوضح للانسان بالانسان ، اي احتراماً اكبر للشخص الانساني ، وعدالة اوفى له ، واخوة اوثق تعبر عنها نظم وعلاقات اجتماعية تتجلى فيها الانسانية في ابهى مظاهرها . لا يكفي العلم والتقنية وحدهما لتحرير الانسان ، ففي استطاعتنا ان نستعمل الآلة لاذلاله ، كما يحدث في الدكتاتوريات المعاصرة .

ثالثاً : تربية الانسان اي تحرير عناصر النبل والكرامة فيه . ما يفيدنا مثلاً ان نؤمن للعامل الشروط الفضلى لوجوده ، وان نزيد دخله ، ان لم نربه تربية صالحة اي ان لم نخلق فيه فكرة واضحة عن الشروط والاحوال الفضلى للوجود ، ووعياً لهذه التحسينات المادية في تقدمه وتحرره .

الانسان صاحب حق

يقول ارسطو : ان وظيفـــة الانسان او المهمة التي ينهض باعبائها تلقي بعض الاضواء على غايته ، وتدلنا غالباً دلالة واضحة عليها . يجد خيره كل من يقوم بعمل في انجازه على اكمل وجه .

ايجوز ان تكون للخباز مهمة خاصة به وان يجرد قواه لعمل معين وان يُضَنّ على الانسان بمهمة محددة في حياته ؟ فبديهي انه كما للعين واليد ، والرجل ، وكل جزء في الجسم عمل محدد ، كذلك للانسان مستقلاً عن كل هذه الاعضاء ، عمله الذي يتفرد به . لكننا لا نجد هذا العمل في حياته المشتركة مع سائر الكائنات الحية . اذاً لا يصح ان نفتش عنهـــا في قوى النمو والتغذية الحيوية ، ولا في حياته الحية التي يقاسمه اياها الحصان والبقرة وسائر الحيوانات . فلم يبق اذاً الا نشاط الجزء العاقل الذي هو وقف عليه دون سائر المخلوقات . فخيره وغايته يقومان في نشاط النفس وفي الحصول على افضل كمالاتها مدى الحياة .

يقول « رينـــه لين » ان الانسان في كل فرد من افراد الانسانية هو اسمى من العالم والفنان ورجل العمل .

فكل مذهب اقتصادي لا يراعي هذا التوازن في الانسان ولا يساعد على تنمية النظام فيه ، يحقّر الانسان ويذلّه ويقضي على معالم انسانيته .

ويسعى الانسان بين الكائنات كلها وحيداً الى غايته ، ويعمل على تنظيم قواه حراً طليقاً من بعض قيود الغريزة والحتمية . ويلاحظ احد الفلاسفة ان كل ميزات الانسان تتحدر من صفة العقل التي يعتمدها الله ايضاً في توزيع خيرات العالم عليه .

ويطلب من الله كما يقول توما الاكويني اعتماد طريقة خاصة في العناية بالمخلوقات العاقلة الروحية التي تفوق سائر المخلوقات كمال طبيعة ونبل غاية . فالنفس الانسانية هي وحدها سيدة اعمالها تتصرف حرة بطاقاتها وتتفتح بحرية – اذا جاز هذا التعبير – بعملها ونشاطها على الخير الذي ينزع اليه الكون . فللانسان سلطان طبيعي على اعماله يحدد بذاته نظام سلوكه في الحياة . وفي طبيعته قدرة على بلوغه خير العالم وخيره الشخصي وعلى ايجاد

الوسائل التي تدنيه من غايته . فاذاً هو مستوفٍ الشروط التي تخوله القدرة على ان يكون صاحب حق . ويكمن في واجبه الذي يدعوه الى تحقيق غايته حقه على استعمال كل الوسائل واللجوء الى كل الاساليب المنسجمة والنظام والمؤمنة غاية وجوده . كما انه يتحتم على الجماعة التي يعيش في وسطها ان تهيء له جواً ملائماً يسهل له بلوغ هدفه الاسمى الذي تحمله اليه الطبيعة .

وفي نظر توما الاكويني ، كل انسان هو صاحب حق ، وكل خليقة عاقلة تنال قدرتها القانونية من الخالق اي حقها على ان تكون صاحبة حق . ويشدد بيوس الثاني عشر الذي عالج باسهاب وعمق كل القضايا الاجتماعية على هذا المفهوم فيقول : « ان القانوني يتجول في عمله بين اللامتناهي والمتناهي ، وبين الالهي والانساني ، وينبعث من هذه الحركة الضرورية شرف العلم الذي يكتب عنه » .

وتستلزم قدرة الانسان على ان يكون صاحب حق ان يعامله المجتمع معاملة تتلاءم وطبيعته . فالعقل المستنير بالايمان يعيد في التنظيم الاجتماعي مكاناً محدداً ومعتبراً لكل فرد ولكل مجتمع خاص .

ويدرك العقل ان كل نشاط الدولة السياسي والاقتصادي ينظم في سبيل تحقيق الخير العام اي تحقيق هذه الشروط الخارجية الضرورية لمجموع المواطنين لتنمية طاقاتهم ووظائفهم في حياتهم المادية والعقلية والدينية .

اذاً ينتج عن طبيعة الانسان العاقلة وعن صفته المتحدرة عنها كصاحب حق ، مطاليب تمت بصلة الى النظام القانوني . فمن الضروري ان يحمي حياة الانسان الاجتماعية نظام قانوني من الخارج تلجأ اليه وتستعين به حتى تبلغ هدفها الذي اعده لها الله . نظام لا يقل القوى بل يحترم وينمي ويقوي حيوية

المجتمع في غنى تعدد اهدافه ، موجهاً كل الطاقات الخاصة نحو كمالها ، يعاونها معاونة هادئة ويدافع عنها بشتى الوسائل الشريفة الملائمة ، لزحزحة كل العوائق التي تحول دون تفتحها التام .

فيجب ان يدرك الشخص الانساني غايته في المجتمع ضمن اطار قانوني معافى . ولذلك ، لا بد من شرطين : ان يحيا الانسان فاضلًا في مناخات الخير ، ثم ان يحصل على الخيرات المادية الضرورية لممارسة الفضيلة .

فعلى النشاط الاقتصادي في الحياة الاجتماعية ان يضع في متناول كل فرد وفي متناول المجموع هذه الكفاية من الخيرات المادية الضرورية لممارسة الفضيلة . الا انه من الثابت اننا لا نستطيع ان نعترف بسيطرة الانسان على الخيرات المادية الا بقدر ما نعترف به خليقة عليها واجبات تجاه خالقها ، ولها حقوق تتيح لها تأدية واجبها .

حق الانسان على العمل

يدل تحليل النشاط الانساني ان الشخص في مظهره الجسدي والروحي والطبيعي والاجتماعي منضو في العمل ، وان العمل هو الانضواء بذاته ، وانه نشاط الانسان المنضوي ، لا صفة يمكن ان تعزل عنه . فالعمل هو حق للانسان نابع من اعماقه .

ولمفهوم الحق والقانون صلة وثيقة بمفهوم الشخص المنضوي . ان الحياة الحيوانية المحضة تخرج عن نطاق الحق ، ولا تخضع للقانون ، والحياة الروحية المحضة تتعدى هي بدورها نطاق القانون ، لانها حياة حب محض يسمو على كل قانون . بقي ان حياة الانسان المتجسدة ذات الوجه الروحي والجسدي ، او كما يقول الفلاسفة ذات الوضع المحدد ، المتأهبة لانجاز مشروع او عمل منتج هي خاضعة للقانون . ولان العمل هو انضواء الانسان

فهو لذلك ذو صلة بالقانون ، بالحق الطبيعي ، بالعدالة والانظمة والحق الوضعي .

ان البطالة للرجال الاصحاء الذين يطلبون عملاً فلا يجدون ، هي واقع غير شرعي يتنافى والحق الطبيعي الذي يشجب نظاماً تبدو فيه البطالة ظاهرة طبيعية .

انما للانسان حق ان يعمل مثل انسان ، لا كالحيوان والآلة ، حتى ولا كحيوان يعامل برفق وطيبة ، ولا كآلة يهتم بها اهتماماً حسناً . وله حق ان يعمل ضمن اطار اجتماعي ، كما تتطلب طبيعة العمل الجوهرية ، اي في اقتصاد لا تشوشه الفوضى ، خاضع لقوانين ونظم اجتماعية ، ولقانون وضعي . اذ ليس الحق على العمل حقاً على حرية فردية وفوضوية بل على حرية شخصية يستلزم ارتقاؤها من الفردية الى مستوى الشخصية تنظيماً اجتماعياً . ويخلق بالحق على العمل ان يدعى حسب تعبير Gurvitch حقاً اجتماعياً . ولا يصح ان نعتبر التشريع الوضعي الذي ينظم شروط العمل ويخضعها لعدالة تسبق كل اتفاق وتسمو عليه ، خرقاً للحق على العمل ، بل خدمة قانونية له . وينطبق القول نفسه على ممارسة الاتفاقيات الجماعية ، التي هي احدى صيغ قانون العمل الوضعي . ولهذا القول نتائج كثيرة : منها الحق على مقاومة كل اقتصاد رأسمالي يستغل العمل الانساني في صالح الليبرالية الفردية ، او في صالح تقنية شركات محتكرة ، واللجوء الى الاضراب الشرعي المطابق للحق الطبيعي والمطالبة بالحق المهضوم . وهكذا يصبح الاضراب خدمة للحق على العمل لا خرقاً له .

ولكل عامل حق على محصول عمله . ويعنينا هنا ان نتجنب كل التباس سهل ، وان نفهم بدقة معنى هذا القول . وقد نكون مخطئين اذا اجزنا للفرد حق التصرف بمجموع الثروة التي

تستحقها مساهمته في العمل . فبديهي مثلاً ان انتاج العامل المسؤول عن اسرة هو معد اولاً لسد حاجاتها وحاجات كل الذين يدعوهم عن حق ذويه . لذلك لا يرجع اليه فقط حظه من الثروة التي تنجم عن نشاطه الخلاق . فللولد الذي لا يعمل حق على حصة من انتاج ابيه . ما نريد ان نقوله هو ان مجموع الثروات التي تولدها نشاطات الانسان المنتجة تهدف اولاً الى خير البشرية بما فيه الكائنات الانسانية التي لم تكتمل قواها ، او التي فقدت قدرتها على العمل مثل الاولاد والمرضى والشيوخ الذين لهم وحدهم حق ان يعيشوا من غير ان تكون له صفة الطفيليين . وطفيليون هم وحدهم اولئك الاصحاء الذين يلبثون عاطلين عن العمل ، ليضيعوا بكسلهم حقهم الشرعي على الحياة من عمل غيرهم في الانسانية .

يقول « سولوڤياف » ان الناحية الاخلاقية تلزم كل انسان ، سواء اكان مزارعاً او كاتباً او صاحب مصرف ، ان يكون عمله مفيداً للجميع يخدم اخوانه في البشرية . وخلاصة القول يتطلب الحق على العمل ان لا يكون الانسان وسيلة اي مستغلاً بل غاية بحد ذاتها . ذلك لان كرامة العمل تتحدر من كرامة الانسان ولان العامل المنتج هو نفسه الشخص المنضوي في عمله .

الحق على الملكية

كلما تبسطنا في البحث عن الملكية ، مر في ظننا ان الكنيسة تحمي الملكية الكبرى والملاكين الكبار بينما هي في الواقع تشدد تعليمها على ضرورة توزيع عادل للملكية ينيل الجميع الافادة من خيراتها .

ولا نعني ان الكنيسة تعارض تجمع الرساميل الكبيرة التي هي ضمانة لاستقرار الاقتصاد المعاصر وديومته . انما هنالك الف طريقة

نتصور بها تجمع الرساميل الكبيرة التي لا تحد توزيع الملكية على مدى واسع .

للانسان حق على الملكية التي تساعده على تفتحه وممارسة مسؤوليته الشخصية واستثمار طاقاته ومعلوماته وخدمة امثاله ، وتهيء له طريقة وجود . في الواقع ان الانسان الذي لا يملك ملكاً ثابتاً يلبث ابداً موثقاً بارادة الغير خاضعاً لاستبداده ، عائشاً تحت رحمة من يملكون المال ، عاجزاً عن بناء مستقبله في مواطن الحرية والاستقلال الذاتي الانسانيين ، وعن استثمار مواهبه في خدمة الحضارة ، وعن العناية بعائلته وبتحمل المسؤوليات التي تتطلبها السلطة الوالدية . ان تنظيماً فاسداً للملكية يشل الانسانية ويدفعها في نضال هدام لا هوادة فيه ، يرغمها على ان تكون نكرة تنظمها وتديرها قوى خارجية ، ينال الفرد من المكافأة ما تقدمه له « بيروكراسية » يعمل تحت اشرافها . عندئذ تصبح الانسانية اشبه بجيش منها بجماعة حية ينعم فيها الاشخاص بالحرية . اذا غاية الملكية هي المحافظة على الشخصية وترقيتها ، وبالتالي هي قيمة شخصية ، للجميع حق عليها . ولذا يطالب بيوس الثاني عشر بانتشار الملكية ويدعو ألا تكون لفئة دون اخرى من الناس بل للجميع لينعموا بثمارها ، والا تسيطر على الحياة الاقتصادية دكتاتورية البعض وتحرم الجماعة المساهمة في اتخاذ القرارات التي تعود بالنفع على الامة .

ودونك تعليم الكنيسة في النقاط التالية :

اولاً يقول توما الاكويني : ان خيرات الارض هي للانسان ، لا تخص كما تحدرت من يد الخالق انساناً محدوداً ، انها ملك الانسانية . ويقول « لكلير » : ان مجموعة خيرات الارض معدة للبشر اجمعين . ولقد دعا بيوس الثاني عشر هذه القابلية لان تكون للجميع حق الاستعمال انه للكل ولكل فرد . انه عام وشامل . وترى المسيحية في هذا الحق الشامل تعبيراً عن شمول اعمال الله الذي اعطى

للجميع جمال الخليقة واشرق عليهم شمسه وارسل ابنه وسيطاً عنهم واراد كنيسته شاملة مشرعة الابواب لهم جميعاً وزودها بصفات تلبي مطاليبهم الحيوية الصادقة .

ثانياً : لا تبلغ الغاية النهائية لخيرات الارض هدفها ، ان لم تحدد الملكية في تشريع وضعي ، تجد فيه دوماً الى جانب قطاع الملكية الجماعية ، قطاعاً للملكية الخاصة بالمعنى الحصري . اذ من الصعب على البشر ان يعيشوا معاً بحرية وسلام وازدهار ، ان كان مطلق شيء يخص مطلق انسان . ان الملكية الجماعية لا تفي بهذه الغاية . ويفتقر الانسان الى الوسائل التي يؤدي بها رسالته في العالم ان لم يملك ثروة من خيرات الارض يستعملها بحرية واستقلال ، ولايفقده هذا الحرمان رغبة العمل فحسب ، بل القدرة على بناء مستقبل حر مستقل والنهوض بواجباته كأب عائلة ، وتحمل مسؤولياته المهنية، ولعب دوره في المجتمع .

ان هامشاً من الملكية الخاصة هو اذن مطلب طبيعي يجب ان يضمنه كل تنظيم للملكية ينشد الخير العام .

ونستطيع القول مرددين فكرة بيوس الثاني عشر : ان حق الملكية هو وسيلة تخدم حق استعمال خيرات الارض وتؤيده ، وفي الواقع لايدرك هذا الحق الذي هو للجميع ولكل فرد ان لم توزع على الجميع الملكية الخاصة .

ثالثاً : ان للمبدأ القانوني « لكل حقه » قيمة خلقية دائمة تعبر عنها سلبياً الوصية الناهية عن السرقة ، وايجابياً هذا الالتزام بتنظيم الملكية حسب الحاجات الجديدة الناشئة عن تقدم الحضارة ، وباصلاح دائم للنظام الاقتصادي الاجتماعي ، التقرب من مثل العدل والاخوة ، حتي يعظم كما يقول بيوس الثاني عشر عدد الذين ينعمون بمنافع الملكية ، وبكلام اخر حتى يتحقق انتشار الملكية بطريقة اوسع واكثر واقعية .

رابعاً يجب ان يتمّ تبديل نظام الملكية ، والعبور من نظام الى نظام آخر بطريقة انسانية ، وان تراعى من جهة الحقوق المكتسبة ومن جهة اخرى الخير العام الذي هو مقياس كل تشريع وكل تنظيم اجتماعي .

الخير العام

الخير العام هو خير جماعة انسانية ، هو الخير الانساني لجماعة سواء اكانت جماعة عيلية او مهنية او وطنية او انسانية شاملة .

هو خير يتقاسمه اخوة في المجتمع ، معاً يسعون اليه ، ومعاً يحققونه ويجنون ثماره وبه يستوفي الشعار « الفرد للجميع والجميع للفرد » معناه الاكمل . فهو اتجاه جهود ، وانسجام اهداف ، ومقاسمة افراح .

وليس خير الجماعة العام ، مجموعة حسابية لخيرات افراد . فهو بطبيعته خير جماعي له دعائم مادية : مناخ جيد ، وطرق حسنة ، وخطوط حديدية ، وخطوط ملاحة جوية وبحرية ، وموانىء صالحة ، مقدار من العناصر يغدق حسن استعمالها فرحاً ورفاهية على الحياة ويجعلها خصبة بالخير ، يرجع اليها تفتح المواطن الانساني . ارضنا الجميلة ، اوديتنا ، هضابنا ، وسواقينا ، انهارنا ، غاباتنا ، جبالنا ، كلها لنا وكلها خيرنا العام . وله ايضاً دعائم عقلية وانسانية ، كتنمية العلوم والتقنية ، والتقاليد الروحية ، والفلسفية والدينية ، والتقاليد العائلية ، وكل ما يدعى حضارة ومدنية . هذه الخيرات التي تسعى الى تحقيقها الجماعة الواعية وتحافظ عليها وتستمتع بها .

يتطلب نشدان الخير العام ، تبصراً وتجرداً وحزماً من الشعب والرؤساء . وجريمة لا تغتفر ان يحكم مسؤول لمصلحته الذاتية لا للخير العام . وتفقد الامة روح الجماعة وتنقسم على نفسها وتشرف على الموت ، كلما استولى عليها حزب او فرد استثمرها بأنانية

تسمنه على حساب الشعب وتؤمن لتباعه «صحيفة السمن»، وانحصر هم الموظف بتقاضي راتبه، وفكرة المشاريع ان تعيش على نفقة الدولة، وحاول ارباب المال ان يجنوا من وضع الامة المضطرب ارباحاً ضخمة، واستنفد اصحاب المراكز كل نشاطهم في التثبت بمراكزهم، ولم يخضع الفرد للقوانين الا قسراً وارغاماً، ولم يطلب العامل الا اجراً اكبر وراحة اوفر لا يراعي اوضاع السوق العالمية، وتهديدات الحرب، وعندما لا تستفيد الوزارات احسن افادة من ميزانياتها، ويستجدي كل فرد اموال الدولة ويشغلها في صالح اولاده.

افضلية الخير العام

يؤكد تعليم الكنيسة الاجتماعي بقوة على ان الخير العام هو الذي ينظم كل عمل اقتصادي واجتماعي وسياسي يستوحي منه كل تبديل يطرأ على بنيان المجتمع، وينظم ايضاً العلاقات بين البشر ويحمي الشخصية الانسانية الجوهرية ويدفعها على دروب التقدم ويوطد النظام الذي هو سلام كل مجتمع انساني مزدهر. ومن الطبيعي ان ينشأ توتر بين حرية كل فرد والسعي الى عيش للجميع افضل يصدر عنه تقدم للحياة الاجتماعية وزيادة في الرفاهية. انما على الحكم ان يسهر حتى لا يتحول هذا التوتر الى انفصال بل الى فائدة تشمل الجميع.

اذن ليس الخير العام واقعاً متحجراً متقلصاً على ذاته، بل هو واقع قابل للتطور والتحسن والنمو. ولا يزدهر شعب الا اذا تطلع الى المستقبل وعني دائماً بتهيئة عيش افضل للجميع، وتبديل النظم والتشريع، وخلق الجديد منه كلما نشأت امكانيات جديدة وتفتحت آفاق جديدة.

ويمكننا ان ندرك الخير العام على وجهين: اولاً ان نرى فيه

واقع رفاهية الحياة كما هو في مستواه الحاضر ، او العيش الافضل الذي نتوق اليه في مستقبل قريب ونسعى لادراكه بشتى الوسائل الشريفة .

ان الانسان المحافظ لا يرى الا الرفاهية التي حُققت وقد يسعى بعض الشيء لتحسين النظام القائم ، تنقصه دوماً المخيلة والشجاعة الضروريتان لتهيئة العيش الافضل للمستقبل القريب وخلق النظم الضرورية التي تهيئه .

واخيراً مع تبدل الخير العام يجب ان يتبدل التنظيم الاجتماعي ، وبكلام آخر ان الشرع والقانون هما ايضاً قابلان للتطور والنمو .

تطور القانون

يأبى تعليم الكنيسة الاجتماعي مفهوماً وضعياً بحتاً لقانون لا يبلغ درجة جودته ان لم ينسجم والحق الطبيعي وينشد الخير العام . وانما نعي بالحق الطبيعي مجموعة الحقوق الاساسية التي لا يمكن ان يحتكرها انسان ، والتي تنحدر مباشرة في اكثريتها من الطبيعة الانسانية ذاتها ، وتعطي كل تشريع طابعه الانساني . انه الحق على الحياة ، وعلى سلامة الصحة ، وحرية الضمير ونوع من الملكية الخاصة ، والسعي الى تنظيم اوفر انسانية للمجتمع . الا ان الحق الطبيعي لا يعيّن الطريقة التي تؤمن هذه الحقوق الاساسية ، يدعها للقانون والتشريع الوضعي اللذين يحددانها ويعيّنان شكلها وصيغتها .

ويأبى ان تكون مشاركة العامل في ادارة المشروع الاقتصادي حقاً طبيعياً ، الا انه لا يستنتج ان معاهدة الاجور هي عادلة في وضعها الحاضر او ان المشاركة تتنافى والحق الطبيعي . سياسة تشريعية رشيدة تراعي معاً الحقوق التي نالها الانسان والخير العام وتحاول ان تطور دائماً الشرع حتى ينسجم وضرورات الحياة

والامكانيات الجديدة التي تنجم عن رقي الحضارة . ولقد ادخلت المدنية عنصراً جديداً على مفهوم الحق الطبيعي ، احدث كثيراً من الفوضى والتشويش في الجدل القائم حول مقومات الحقوق الطبيعية والوضعية . ويعبر هذا العنصر الجديد عن مجموعة رغبات ومطاليب او شبه مطاليب هي مقياس للتشريع الوضعي في تطور الحضارة المعاصر . الا أنّ كل دولة تقدر ذاتها وتقدر تطور الحضارة تسعى ما استطاعت الى تطوير تشريعها نحو الكمال في حقول الثقافة والتربية والحقول الاجتماعية لتكفل للجميع امكانيات وجود افضل ...

STUDIO MISR
Imm. LAZARIEH
TÉL : 237170

ستوديو مصر
بناية اللعـازرية
تلفون : ٢٣٧١٧٠

المجهز بأحدث الآلات الالمانية

يقدم صورة مكبرة مجاناً

لكل من يتصور نصف دزينة باسبورت

اتقـان في العمل • مهاودة في الاسعار

* تسليم صور الباسبورات بمدة ساعة *

تظهير وتكبير ومبيع افلام ، تلوين فني

تصوير جميع الحفلات والاعراس ليلاً ونهارا

بناية اللعازرية تجاه كاتدرائية مار جرجس

سوفوكل في قلعة صيدا

بقلم
سمعان نصر

لم يكن صخب الأمواج العاتية التي كانت تلطم جدران القلعة المتداعية ، ولا ازيز الطائرات المحلقة فوق البحر تمزق ستائر الليل الشفافة ، لتلهينا عما يدور امامنا ، او لتحول دون سماع ما ينطق به الدهر بلسان كل حجر نخر ، وبلسان كل موجة تتكسر فوقه .

ما كان بمقدورنا تمييز مصدر الصوت الذي يطرق آذاننا ، لانه كان يمتزج بصوت الانسان المحلق فوق الأثير ، وصوت الانسان التراب الذي ندوس ، وصوت الانسان الدهر الذي لولاه لما كان الدهر دهراً ولا ُقلد حكمة وعبرة ...

نعم كنا نشهد تمثيلية مسرحها البر والبحر ، وابطالها طائرة وجدار وانسان ، ولغتها لغة الحدثان ... اما موضوعها فتلك الدائرة الآخذة بالاتساع منذ ملايين السنين ، والتي احدثها حجر القاه الله عندما كان يلهو على بحر الوجود ...

البر والبحر كانا يتعانقان تحت اقدامنا واقدام الابطال ، ويجتمع الهواء اليهما ليكتمل ثالوث الطبيعة ، ولتتكامل انغام سنفونية راتبة ، توقعها عناصر الطبيعة هذه ، وتتجاوب مع نهدات كل انسان ، ذلك الانسان الذي كأنه لا يعيش الا ليموت ، ولا يموت الا ليُخلق من جديد ، في دوامة كدوامة الموجة التي لا تني تناطح وتتكسر ، او دوامة البنيان الذي يرتفع على

اطلال بنيان آخر ، او اخيراً دوامة النسمة التي تسكن حيناً وتشتد آخر .

ولقد ابدع الابطال في تأدية ادوارهم فوق هذا المسرح الفسيح :

فالطائرة هي بطل التقمص ، او بلغة اهل المسرح ، بطل الماكياج ، بطل هذا العصر الذي يتبرج ويتعاظم ويطأ الكواكب ، وفي قلبه فخارة هي اقدم ما في الكون من آثار واطلال . ومهما علت الطائرة وتناهت في التحليق ، لا تزال بحاجة الى الارض تحط عليها وتأخذ منها الوقود والعتاد . ونحن ، انسان هذه الطائرة ، وقد بلغنا ما بلغنا اليه من تقدم علمي وتقني وحضاري ، أتحولنا لاجل ذلك عن انسان سوفوكل والعصور الاولى واصبحنا من غير طينة !!! بل اننا نشعر ، بالعكس ، اننا لا نزال اخوة وابناء عم وخال ، رغم بعد الشقة وتمادي الزمن ، وهذا ما يجعلنا نجبه انسان عصرنا بهذه القولة القاصمة : ان الانسان بعقله وقلبه لا بأي شيء آخر ...

اما الجدار ، فهو ذلك البطل الذي تحمله الطائرة من هاتيك الاصقاع القصية ، هو انسان سوفوكل الذي يتراءى خلال الحجر النخر والجدار المتداعي ، والذي اقمناه نحن ساعة معلماً لنا وموجهاً ، فاذا به امتداد لنا ، بل بالحري نحن امتداد له ، لسنا بحاجة الى كثير من الماكياج لنتمثله ، بل نحن بحاجة ان ننزع القناع عن وجوهنا لنصبح نحن هو وهو نحن .

وما قاله لنا البطل الجدار ، هو نفس ما يجب ان يقوله البطل الطائرة او القصر المنيف . او بكلام آخر ، الحكمة التي بنت عصر سوفوكل هي نفس الحكمة التي يجب ان يقوم عليها عالم اليوم . وما احرانا اليوم ان نتأملها رغم انها تصفعنا على وجوهنا ... فاذا ما قال سوفوكل على لسان ابطاله ان قضية السلام متعلقة بقضية عقاب المجرم واحترام الحقيقة ، فهل يسمعه انصار السلام وهيئات الامم المتحدة والاندية العالمية وحكام كل بلد ، خصوصاً بلدنا هذا ! واذا ما قال ان انصار الملك وبطانته يرتعون سعداء اكثر من الملك نفسه ، افما يصوّر كثيراً من مشاكلنا الاجتماعية ? اما اذا قال ان اصعب شيء في الحكم هو

معرفة تآلف المحبة والعدالة ، فانه يطال كل نظام في الصميم ، ويحكم على طائفة كبيرة من انظمتنا وقوانيننا التي لا تعرف لهذا التوازن والتآلف معنى ...

اما البطل الثالث ، الانسان ، فهو متعدد الوجوه . فهنالك الانسان سوفوكل ، وهو يمثل ناحية من العبقرية اليونانية التي تحسب عن حق اكبر مصدر للحضارة بل اغزر منبع للآداب والعلوم . وسوفوكل انسان بقدر ما يصور انسان كل عصر لانه بذلك يكون هو نفسه خالداً في كل عصر .

وهنالك الانسان منير ابو دبس مع اعضاء فرقته ، ولهم في هذه المسرحية الدور الاكبر ربما ، لان احياء عصر من العصور وجعل الناس يعيشون ذاك العصر ويتمثلونه حياً امامهم ، لهو من اصعب الفنون واشقها اداءً ...

وفضلاً عن هذا لمنير ابو دبس وفرقته عدة افضال يشكرون عليها : منها انهم بتمثيلهم المسرح اليوناني القديم ، قد ادوا خدمة للأدب العربي ، لان المسرح العربي لن يقوم الا باحياء المسرح اليوناني ، كما كان شأن المسرح الغربي . واذا كان المسرح العربي لا يزال حتى اليوم معدوماً تقريباً ، فلأن هذا الأساس ينقصه .

ومنها قيامهم بهذه الخدمة دون تشجيع كبير ، لا من جهة الحكومة ولا من جهة الشعب . فان منير ابو دبس يبني المستقبل ويمهد بذلك لقيام مسرح لبناني عربي مستقل ، ينتقل من الاقتباس الى الخلق ومن التقليد الى الانشاء .

اضم بدوري صوتي الى اصوات الكثيرين ، لأحيي الاستاذ منير ابو دبس وفرقة المسرح الحديث واهنئهم على الوصول بالتمثيل والأداء الى مستوى رفيع ، على امل الارتقاء والكمال .

لماذا

أومن بالله

بقلم

الاب موريس زندل

تسألونني، بواسطة حضرة الاب حكيم: لماذا أومن بالله. فموقفي من هذا السؤال انتفاضة تجعلني اجيب في بداهة: انا لا أومن بالله؛ لاني أحياه؛ او اذا شئتم جواباً اقل تناقضاً: أومن بالله لانني أومن بالانسان.

وقد يكون تفسيري لهذه الانتفاضة الطريقة الفضلى لولوجي في الموضوع الذي تلطف الاب حكيم فطلب مني معالجته.

أما لماذا لا أحب ان أُنعت بالمؤمن. فلأن كلمة مؤمن تقابلها كلمة كافر او ملحد، والحال ان الكفر والالحاد يرتكز على علل كثيرة ومتباينة جداً.

فرجل العلم من امثال لابلاس الذي عاش في

عهد نابليون قد نظن انه لا يحتاج لهذا الافتراض ؛ واليائس او الانسان الرهيف الحس بآلام الابرياء من امثال والبير كارامازوف كامو ينبذ فكرة الله لكيلا يضطر الى ان يبغضه كالمسؤول الاول عن جميع الشرور التي تعاني منها البشرية المتألمة ؛ وعاشق لذائذ الحياة ينكر وجود الله ليستسلم بدون رادع الى اشباع نهمه منها .

اما ماركس وعلى غراره نيتشه وسارتر فيرى في الايمان بوجود الله انكاراً للانسان ؛ لان التعلق المطلق بخالق يعني ، في نظره ونظر امثاله ، ملاشاة للانسان لا لشيء الا لان الانسان ، مع الايمان ، يقع في قبضة غيره ، وفي هذه الحال يمتنع عليه ان يتصرف بذاته على هواه ويترتب عليه ان ينقاد انقياداً مطلقاً لارادة ذلك « الغير » الذي يؤمن به .

فهناك اذن عدة انواع من الالحاد وكل نوع منها يحدد بالنسبة لإله معيّن يناهضه ملحد معيّن . وبالمقابلة هناك ايضاً عدة مفاهيم لله ؛ فاذا ما قلت : اني أومن بالله ، فلا يكون اقل حتمية عليّ ان اعيّن « الله » الذي ارجع اليه وانتمي تحت لوائه .

بهذه الاسباب وبغيرها من مثيلاتها اتذرع

لارفض وصفي « بالمؤمن » على ان في طاقتي ان أعلل رفضي في وضوح أجلى ، بهذا الواقع وهو ان السواد الاعظم من « المؤمنين » الذين يحاولون ان يبرروا ايمانهم ، يعرضونه ، بطريقة غير صالحة الاداء ، كأنه تفسير لوجود العالم ، فيقولون: « اذا كان العالم قد وُجد فلا بد من ان يكون هناك واحد أوجده . نحن موجودون ولكننا لسنا بأسياد وجودنا وفي استطاعتنا ان نموت في كل لحظة . فنحن اذن متعلقون بكائن » . ان هذه البراهين وما ماثلها لا تعني شيئاً بالنسبة اليّ وليس لها اي تأثير فيّ .

اذ انه من الصعب جداً ان نثبت ان لعالمنا بداية ، لأنا منذ ان التقيناه ، كان موجوداً ، ومن قال لنا ان وجوده ما قام على انقاض عالم آخر قد نفدت جميع طاقاته .

وبالتالي لمن يعتبر ان الحياة تتغذى من الموت وان العدد العديد من انواع الحيوانات تقتل وتفترس انواعاً اخرى ، وان عداء مستحكماً في قلب النوع الواحد يفضي الى معارك دامية ، واننا ، نحن معشر الناس ، نعدّ من اعظم مستهلكي النباتات والحيوانات واننا نقتل بدون رادع ولا وازع كما تمزّقنا كبريات

الضواري وتنفث الافاعي سمها فينا بدون رحمة وبدون وخز ضمير ؛ ولمن يراقب التقلبات الطبيعية من هزات ارضية وانفجار براكين وفيضان البحار، وطوفان مياه الانهار والامطار وسقوط جبال الجليد التي تبيد من الوجود، في لحظة، المئات بل الالوف من الناس، ما عدا الامراض الجرثومية وغزوات أرجال الجراد وجدب الارض الذي يسبب المجاعة. فأمام هذا المؤمن ينتصب هذا السؤال المرعب: اذا كان وراء هذه الطبيعة التي هذا هو نظامها، اذا كان وراء هذه الآلام التي لا يحصى عددها كائنٌ فهل يكون هذا الكائن شريراً، قاسياً او لا مبالياً، فهل يكون، بعبارة موجزة، اشد ميلًا الى الشر منه الى الخير؟ هل يكون شره اعظم من خيره؟

وخلاصة قولي: ان الله هو، في نظر العلوم الفيزيائية الراهنة التي تحصر بحثها في الاحداث القابلة الاثبات مادياً، خارج حتماً عن نطاق درسها، لانه من المستحيل علينا أن نلتقيه في حقل التجارب التي تستهدف حقيقة ممكن ادراكها حسياً. اما بالنظر الى الشعور الادبي فالعالم، كما هو، يظهر لنا معثّراً اكثر منه بنّاءً، لهذا يتعذر عليّ ان استغيث بإلهٍ

محتوم عليّ ان اثبت وجوده ... وبعد هذا اسمح لنفسي بمداعبة فيها رائحة طفيفة للخنث ينفرها لي حفل لا يعدل لطفه الا انفتاحه كالذي اراه امامي .

ان القديس بولس وهو يستعيد في الفصل الاول من رسالته الى الرومانيين البراهين التقليدية ، يحكم حكماً قاسياً على الوثنيين الذين لا يجد لهم عذراً في جهلهم الله : « لان صفاته غير المنظورة ولاسيما قدرته الازلية وألوهته ، تُبْصَر منذ خلق العالم ، مدركة بمبروءاته (عدد ٢٠) . وفي الفصل الثامن من الرسالة عينها (٢٥ و ٢٢) يقول لنا ان البريّة قد أخضِعت للباطل ، لا عن رضى بل بسلطان الذي أخضعها وتئن وتتمخض » .

وبما ان الرسول كان يملي هذه الرسالة الطويلة وفي فترات ، كما يلوح ، متفرقة ، لم يستطع ان يلحظ ما بين هذين المقطعين من تضاد وفي رأينا ان النص الثاني هو ، بكل تأكيد ، اعمق من الاول وهو من تفكير الرسول الشخصي .

فمن نظرية القديس بولس نستنتج ان ليس بذنب الانسان كانت الخليقة على غير ما يجب ان تكون وعلى غير ما يريدها الله . فليست بعد الا على الرجاء

في ان تعتق هي ايضاً من عبودية الفساد (راجع عدد ٢٠) واذن ليس من الفطنة ان نتخذها، كما هي، نقطة انطلاق الى اقامة «دليل» على وجود الله وكماله.

مع العلم ان الالحاد كان، في عهد القديس بولس، نادراً؛ وهو نفسه يشنع بآلهة الوثنيين ويعتبرها آلهة كذبة. فالالحاد ما كان في وسعه اذن ان يكون، في نظره، مشكلة كما هو في نظرنا؛ وهذا لا ينتزع شيئاً من القيمة الفريدة التي لهذه الرؤية لخليقة لا تزال جنيناً وغير كاملة يقدمها الينا الفصل الثامن من الرسالة الى الرومانيين. وليس الانسان اكثر اكتمالاً ولا اقل جنيناً من البرية، فريسة اوجاع المخاض. فالانسان نفسه ايضاً لا وجود له الا في الرجاء.

من هذه النقطة بالذات انطلق: فالانسان الانسان لم يوجد بعد. على ان هذا اليقين، هذا التأكيد ان الانسان ــ الانسان ما عدا بضعة شذوذ نادرة ــ لم يخلق بعد هو اسهل علينا ان نعيشه من ان نشرحه. ولكني سأحاول ان أجسد فكرتي في مثلٍ حيّ محسوس.

إمرأة موسيقار اكملت عقدها الرابع ارملة او مطلقة كانت اهتدت الى الايمان وقبلت سر العماد

قبل الحدث الذي ارويه لكم بسنة او سنتين. لقد اقدمت على ذلك وخطت تلك الخطوة بحرية كاملة وجدية. على انها استسلمت، في احدى المدن الاوروبية، لضابط راح يراودها عن نفسها، وانتهى الامر بها الى ان صارت عشيقته. فاذا كانت قد خانت هكذا عهد ايمانها فمردّ ذلك الى ان شهوة قوية استظهرت فيها على صدقها في وعودها وامانتها الاكيدة لها.

لقد تورطت بكل ما فيها من قوة وقوى في هذه المغامرة مع كل متطلباتها الحاسمة الى حد انها راحت تخون، لكي تعيشها، عهود معموديتها. وبما انها كانت من طبعها جدّ غيورة لم تلبث ان بدأت تشك بامانة عشيقها لها؛ ولكي تتيقن من انها ليست على خطأ في ظنونها استأذنت بائعة جرائد، كشكُها يقابل بيت عشيقها، بالاختباء فيه لتراقب ذهاب واياب نساء من الممكن ان يكنّ منافسات لها. وبعد اذ تيقنت انها ليست المرأة الوحيدة التي تستهوي وتخلب قلب ذلك الفارس الجميل، اقدمت، في اول لقاء لها معه، على قتله ثم انتحرت. كنت مقيماً في الجوار يوم حدثت هذه المأساة وقد اطلعني على تفاصيلها الكاهن الذي قبل تلك المرأة في الكنيسة.

فكيف نشرح هذه النهاية الفاجعة ؟

لقد كانت تلك المرأة اعتقدت بدون شك انها شيء غير وسيلة للذة متعاقبة ؛ لقد فكرت في ان تكون المرأة الوحيدة وارادت ان تكون المحبوبة الوحيدة ؛ وقام في يقينها ان فارسها يتعرف ، عبر جسدها ، الى شخصيتها وعنها يبحث واياها يحب ؛ فاكتشفت ، على حين غرة ، ان شخصيتها ، في نظر عشيقها ، لا وجود لها بل كانت ، بكل بساطة ، واحدة من ألهياته العديدة .

فرأت في ذلك انكاراً لشخصها ، وتنكراً قاطعاً لقيمتها وتجاهلاً لمكانتها . فما استطاعت ان تغفر له امتهانه الى هذا الحد كرامتها ولا ان تسامح نفسها لانها كانت شريكة في احتقار ذاتها باندفاعها الطليق وراء مغامرة هي من الغفل والتفاهة بمكان .

انها ، في اعطائها ذلك الرجل ما تستطيع اية امرأة ان تعطيه اياه انكرت ، هي نفسها ، على نفسها ، تلك القيمة التي كانت ترعم ان تكونها ولم تكنها في الواقع ، لانها ما عرفت ان تقاوم تياراً شهوانياً جارفاً . فكان مقتل عشيقها وانتحارها مطالبة يائسة بشرفها المنتهك ، وبمكانتها التي خانتها هي نفسها

وتجاهلها وتنكر لها هو . ففي هذه المأساة نستطيع ان نقرأ ، بالاجمال ، مأساة البشريه جمعاء .

فكل واحد منا يحتاج ، في الواقع ، الى ان يؤمن بأنه ضروري لا يستغني عنه ويريد ان يجعل السوى يؤمنون ايمانه ؛ كل واحد منا يزعم ان يكون قيمة وحيدة ويسعى الى ان يفرضها على إعجاب الآخرين .

فهذا اليقين بأننا قيمة وهذه الحاجة الى جعل الآخرين يقرون بها يرتكز دوماً على وهم ، ولكن السواد الاعظم منا لا يتبينون هذا الوهم بذلك الوضوح الفاجع الذي جرّ تلك المرأة الى جريمة مزدوجة .

على ان هناك ، لحسن الطالع ، ساعات وعي أقلهن حادث هذه المرأة شجواً وتأثيراً ينكشف فيها الوهم . قرأت ، في احدى المجلات ، القصة التالية : ان رجلًا فتنه جمال امرأة فقادها الى مطعم جديد في الضواحي الباريسية ؛ البذخ فيه والاناقة يتجاوزان كل ما يمكن ان نتصوره ؛ فاستغل دهشتها وإعجابها واستحضر غداء يتوافق وغنى المطعم وجماله .

وما عتّم ان رأى في الشارع رجلًا وولديه يرتدون

ثلاثتهم ثياباً رثّة ويحملقون من وراء الواجهة ويتبصرون، على لمعان الانوار، وعلى وجوهم بادية علامات الدهشة والشهوة، بالصحون المثقلة بالاطعمة الفاخرة تروح وتجيء. فشعر، فجأة، بانزعاج وخجل من توافر الاطعمة امامه وبدت له كأنها تحدٍّ لذلك البؤس واهانةٌ لاولئك البؤساء؛ وادركت المرأة ان وجود البؤساء الثلاثة مزعج وثقيل، فاستدعت خادماً وطلبت منه ان يطرد اولئك الفقراء الذين يعكِّرون صفو العيد؛ عندها اكتشف الرجل الفراغ المطلق لذلك الجمال الذي فتنه، وفي وعيه لحاله وكفره بشهوته قطع علاقاته بها.

تذكِّرنا هذه الاقصوصة بسؤال طرحه «ألان» على نفسه: هل في طاقة رجل ان يفتتن بامرأة مجنونة؟ وجوابه: كلَّا؛ هذا مستحيل. لان الحب حتى المغرق بالشهوانية يأمل، في الواقع، بأن يجد شخصاً؛ واذا ما تأكد من انه يتعذر عليه ان يجده تخبت الشهوة فيه ولا تعود تقوى على الظهور.

كتب فلوبير في مفكِّرته هذه الكلمة الخليقة باعجابنا بعد ان تلقى رسالة من بودلير يستعطفه فيها ان يعينه على الدخول في محفل الخالدين الفرنسي:

« لماذا يرغب الانسان في ان يشيّء ذاته عندما يستطيع ان يكون شخصاً ؟ » لقد اراد ان يقول : هل يحتاج عبقري خلّاق الى ان يظهر نفسه كقالب خشبي في معرض خياطة رفيعة ؟ ان هذه الملاحظة المحزنة تلقي نوراً وضّاءً على موضوع بحثنا . في استطاعة الانسان ان يكتفي بأن يكون شيئاً ولكنه يستطيع ، اذا أراد ، ان يصبح شخصاً او بالحري انساناً .

لنحاول ان نحدد هاتين الوجهتين . واولاً ما تعني للانسان هذه العبارة : ان يشيّء الانسان ذاته ؟ شاهدت ، في سيّارة كبيرة ، امرأة تهاجم رجلاً وتمسك بعقدة عنقه وتشدها على رقبته تريد ان تقضي عليه خنقاً . ذلك مثل ناطق بحركة عفوية تتفجر من شهوة قوية كمثل التي نراها في الديكة تتقاتل حتى الموت في مدجنة . فالشهوة اللحمية الجامحة كانت بدون شك الحافز الاصيل عند تلك المرأة ، انفجرت ايضاً بدون ريب ، بفعل غريزة مشتركة بيننا وبين الحيوانات من غدد صماء او على الاقل من نفسية تتجاوب مع عملها الكيماوي وتؤثر فيها افرازات تناسلية وتكيّفها الى حد ما .

كذلك الافراط في شرب الكحول والمخدرات والاطعمة، تفترض ايضاً تلاقياً بين تشابكات عضوية ونفسية تنتزع من الكائن البشري تسلطه على ذاته.

فيبدو الانسان اذن كأنه شيء عندما يفقد السيطرة على ذاته فتسيره اندفاعات غريزية وتتصرف به كما يحلو لها وتستعبده بطريقة ام باخرى اطباعه وتأثراته وشهواته العضوية او النفسية: كشهوة السيادة او الرغبة في المجد المعبرة عن حاجته الى الظهور والشهرة. وهذه الرغبة في الشهرة تقودنا، براحة وسهولة، الى التعرف الى عبودية هي من العبوديات أعمها وأدقها واخبثها وأخفاها ألا وهي العبودية التي تفرضها علينا المحبة الذاتية والانانية القاهرة.

وهذه المحبة الذاتية نزعم معرفتها بسهولة عند الآخرين ولكن ليس شيء اصعب علينا من ان نكتشفها عندنا كما انه ليس شيء اصعب علينا من ان نتخلص منها ونتحرر من سلاسلها. لا لشيء الا لاننا لا نقدر ان نحيا بدون ان نؤمن بقيمة حياتنا والا لأمسى الانتحار تجربة لا تقاوم.

سنحت لي ظروف، منذ سنة، ان اشدد علي

هذا الواقع وهو ان الحيّ هو آلة ، هو أداة تتحرك بذاتها وتوافق هذه الذات في الاجرام معه من الخلية النباتية الاكثر اغراقاً في القدمية حتى الانسان. ذلك لان الحيّ هو في خطر دائم ولا يقوى على البقاء الا اذا كان حارساً لنفسه بنفسه.

فحتم عليه ان يقتات ، ويفرز نفاياته ويتنفس اذا كان كائناً متنفساً ، ويتناسل لان الفرد يرث ويبلى ويموت لنقص عادة في مقدرته على التجدد وعلى الدفاع عن نفسه اخيراً ضد اعداء يلتقيهم في حياته.

وخلاصة الكلام ان الحي هو ابداً في خطر لان بقاءه يتعلق بألف عامل وعامل خارج عنه. فلا يستطيع ان يُبقي على وجوده إلا ببذل نشاط مستمر يدفعه اليه تعلقه بنفسه ؛ وحبه للبقاء يجعل منه عناية لذاته.

ان العامل النفسي الطبيعي ، في جميع انواع الكائنات الحية هو ، بالذات ، الاشتراك بالذنب مع الذات.

اذا رأيت ، في الصباح ، عنكبوتاً في قعر مغسلك ، تجدها تكرر بدون انقطاع ، إجهاداً لا

يجديها نفعاً للخروج من ورطتها محاولة التكمش بجنبات المغطس الملساء لتثبّت فيها قوائمها . بدون انقطاع تسقط وبدون انقطاع ايضاً تجدد محاولاتها ، ومع ذلك تصر على الصعود ولا تقوى عليه ، هذه هي حال كل حيّ ، وصورة ناطقة لغريزة البقاء عند كل حيّ .

ان الحياة هي ، في الواقع ، مغامرة تكتنفها المخاطر من كل صوب لانها إثباتٌ ، ظاهره متناقض ، للوجود المستقل بذاته الموجّه لذاته ويريد البقاء لذاته ويتعذر عليه البقاء بوسائله الخاصة . فينبغي اذن ان يعتاض من عجزه الفاضح بسهر متواصل .

أما الانسان فلا يتملص من هذه المشاركة بالذنب مع ذاته ، بل على العكس من ذلك ، فانها تبلغ ذروتها عند الانسان الى حد ان تتحول عنده الى جنون فردي او جماعي كما حدث لهتلر ولوطنه الالماني .

أكيد ان الناس يستطيعون ان يتكاتفوا ليتغلبوا على حاجاتهم الجسدية ، اذ لستم ملزمين بالذهاب الى الصيد لتجدوا ما تقتاتون به ، ففي مخازن زحلة الكثير من المواد الغذائية تؤمن لكم ما تأكلونه اذا كنتم تملكون بعض المال لتدفعوا اثمانه للذين

يجهزونه لكم. فالمأكل والمشرب لا يخلقان لكم، كما اظن، معضلة جسيمة. فالشؤون الجنسية هي المشكلة الخطيرة لانه يصعب على الانسان التسلط عليها. ويبدو ان البشرية، الموصوفة بالمتمدنة، تبذل قصارى جهدها، باكثارها من المغريات والاغراءات الى حدود اللامتناهي، لتجعل من الشؤون الجنسية شؤوناً لا تساس ولا تُحكم. وقد يكون جنون الغرام اكثر انواع الجنون انتشاراً. على ان المحبة الذاتية هي الحصن الاينع الذي يصعب اقتحامه لان مشاركتنا بالذنب الى ذاتنا وان تضمنت حاجة جنسية كما جرى للمرأة التي انتحرت بعد ان قتلت عشيقها، تقتضي، كما بينت ذلك في حينه، حاجة الى تقييم انفسنا تجاه ذواتنا والى حمل الآخرين على الاعتراف بمكانتنا: حاجة قال فيها «هسنار»، وبحقٍّ، انها فينا فطرة أصيلة.

اذكر ان شاباً خطف طفلًا وراح يطلب من والديه فدية عنه لا لشيء إلا ليجعل الناس يتحادثون عنه. ان نجمات السينما وابطال الرياضة البدنية كمعظم محترفي السياسة والادباء يسعون وراء المجد. ويحدث ان الكثير من المناقشات، كما هو شائع، تنتهي

الى خلافات لان كلًّا من المتناقشين يريد ان يحتكر الحق لنفسه ولا يظهر انه على خطأ امام الناس .

كل منا يتمسك بمصالحه ويتعلق بذاته ويسعى الى ايقاع الضرر بالآخرين ، سواء اكان بالقول ام بسوء الظن ليجعل لذاته قيمة ويعلي مكانته . كل منا يبرر نفسه ويتبرأ ويصوّب رأيه ويغفر لنفسه زلاته ويراعي ذاته ويكيل المديح لذاته ويخطب ود الآخرين ويستجدي رضاهم واعجابهم . وعندما تبدر منه حركة احتقار لذاته فلكي يعطي ، ـــ ان لم يفضِ به الامر الى الانتحار ـــ الدليل على تواضعه ؛ والانتحار ذاته ، مع ذلك ، يفترض خيبة أمل او حرماناً من المكانة التي يتوخاها الانسان لنفسه وللآخرين .

فكيف نفسر جميع هذه التصرفات المتشابكة المختلة التوازن ؟ نفسرها بهذا الذي أسماه تيلهارد دي شاردن : خطوة التفكير . الحيوان يحيا حياته وغرائزه تسيره بدون ان يقوى على كبتها والتسلط عليها . فلا يعي انه عائش . اما الانسان فيستطيع ان يعي وجوده ويسأل نفسه عن نفسه .

لم يكن لنا يد في وجودنا وكل ما نحن وكل ما فينا قد فرض علينا : الوراثة ، والاهل ، والبيئة ،

والعصر والوطن، والعرق، والجنس واللغة وحتى الدين.

ومع ذلك لا مندوحة لنا عن ان نطرح على انفسنا السؤال الآتي: لماذا وجدنا؟ ما هو معنى الحياة في مجموعها؟ ما هي وجهة التاريخ في جريانه؟ فما هو مرمى الكون وتطوّره؟ ان الكائن ككلٍّ هو معضلة في نظرنا. فبعد اذ رُمينا في العالم، رمينا متميزين عن الحيوان المطمئن بطاقة على التفكير هائلة وبصيرورتنا لنفوسنا علامة استفهام كبرى.

ومع انه ليس في استطاعتنا ان نعلق وجودنا، لا نبرح نحيا. فما هو الدافع؟ ان لم تكن هذه الممالأة لنفوسنا، وهذا الارتياح الى ذاتنا، بهذا الميل الى ذاتنا، بهذا الشعور بمكانة تتوطد، تتأكد في «الأنا» الذي لا يفارق شفاهنا، شعور بالقيمة الذاتية الذي يتجسم ويتبلور في الانتحار؛ لان الانتحار يعني: ان الوجود وما انا عليه لا يكفيني.

وخلاصة القول ان معنى الحياة الذي نسعى وراءه أعطي لنا أولاً، فعليًّا، بهذا الجواب الواضح، بهذا اليقين العفوي، بهذا الاعتقاد الباطني بقيمتنا الذاتية التي هي الشكل الذي يتخذه اشتراك كل كائن حي مع ذاته بالذنب.

فكما اننا نستطيع ان نكون شهود عيانٍ لذاتنا ونزن العالم وذاتنا بميزان احكامنا يتعذر علينا ان نرضى بالحياة ما لم نسلّم بأن وجودنا لم يُفرض علينا، وبأننا لسنا محض أدوات او آلات تحرّكها يد خفية وبالتالي لسنا بمسؤولين عن أفعالنا، وهذا الشعور بقيمتنا الذاتية يجيز لنا، شرعاً، بأن نؤمن بأننا نحن مَنْ نختار حياتنا وبأننا نحن، على نوع ما، أصلها وفصلها.

« انا موجودة، وحتم عليك ان تحسب حساباً لوجودي » قالتها لصديق لها مستقيم النية امرأة عازبة اخذت في شباكها رجلًا متزوجاً وأباً لأولاد صغار.

اجل انها كانت موجودة وجود أنثى تمسك بذكرها؛ كانت موجودة وكأنها خلقت مسبَّقاً مع غددها وافرازاتها التناسلية متواطئة معها ومنتحلة لنفسها الحق على تهديم عيلة ذلك الرجل.

هذا هو، في وضوح تام، هذا « الانا » السابق الوجود الذي يفرض ذاته كقيمة لا جدل حولها ويطالب بحقوقه، بينا هو يمثل من العبوديات أعمقها وأمتنها، بينا هو، في حده الاعلى، ما هو مفروض في ممالأة خفية غامضة.

نحن جميعاً من هذا الواقع في الصميم ونعزو لذواتنا قيمة لم يكن لنا يد في وجودها، ولم نخلقها؛ ونزعم اننا اخذنا من ذواتنا كينونة هي، بكليتها، سابقة الوجود؛ ومحبتنا الذاتية هذه التي تشدنا الى ذواتنا هي سجننا الاضيق.

فمن الواضح اذن اننا اذا وجدنا وجوداً حقيقياً كوجود الجماد والنبات او الحيوانات فانا لا نوجد، ضرورة، كاشخاص، ككائنات لا يستغنى عنها، كخير عام من مصلحة الاخرين ومن منفعتهم ان يحترموا وجودنا ويدافعوا عنه ويعتبروه مقدساً لا يمسّ، كما تنادي به وتطالب ـ حبراً على ورق ـ شرعة حقوق الانسان على اختلاف مصادرها. وهذا ما هو واجب لان كل ما فينا ليس، في الاصل، منا.

ولكن اذا كنا، في البدء، لا نوجد الا كما توجد الحيوانات فهل في طاقتنا ان نوجد خلافاً لوجودها على صعيد اخر؟ واذا كنا حتى الآن لسنا بشراً حقيقيين فهل نستطيع ان نتأنسَنَ فنصير حقاً وحقيقة قيمة ما برحنا نطمح الى ان نصيرها. هنا تكمن المعضلة.

هل من الممكن ان نجيب عن هذا السؤال ؟ فهل في وسعنا ان نرتاب بان في الانسان قيمة ممكنة ؟ بما ان التفكير يخرجنا من اطار اصلنا الحيواني ؛ بما اننا لا نقدر بعد ان نجد عدم مسؤولية الحيوان فيستحيل علينا ان نحيا مع معرفتنا حق المعرفة هذا الوضع اذا لم نكتشف فينا شيئاً إلا ما فرض علينا فرضاً مسبَّقاً .

ان اليائسين ، قبيل انتحارهم ، يقدمون الينا على هذا شهادة لا ترد . لأنهم يعيدون النظر في المعنى الكامل للحياة وللبريّة جمعاء . فكيف نعطيهم جواباً قاطعاً ؟ الكلمات كلها عاجزة وجميع ما نقدمه من شروح تبدو تافهة . فأمام الهوّة السحيقة التي تنفتح امامهم وفيهم ، شيء واحد نستطيع ان نحمله اليهم هو هذا الحضور الكلي الجامح الذي يجعل لديهم ثمن الحياة محسوساً : في الفراغ الذي نخلقه لنتقبله .

هذه هي ، بالصواب ، الطريق الى اكتشاف خطير : ألا وهو اننا نستطيع ان نأخذ من ذواتنا كل ما نحن اذا اعطيناه اذا تعرّينا ، كليًّا ، من انفسنا لكيلا نوجد بعد إلّا في تقدمة المحبة التي نتمها من ذاتنا بتحويلنا « الأنا » المشترك معنا في

الذنب الى « انا » مضحًّى وسكيب .

هذا هو اختبار القديس اغوسطينوس الذي اذكركم بمناجاته العجيبة : « لقد تأخرت عن ان احبك ، ايها الجمال القديم جدًّا والجديد جدًّا ، ذلك لانك كنت في باطني وانا في الخارج كنت افتش عنك ؛ واسعى وراءك بانقضاضي بدون جمال على تلك الجمالات التي صنعتها يداك . لقد كنت معي ولكن انا ما كنت معك » (اعترافاته ١٠ : ٢٧) .

ان اغوسطينوس كان في الخارج ، في خارج ذاته وخارج عن كل حقيقة واقعية منقاداً لشهواته ، عاجزاً ، بالرغم من ثقافته العالية ، عن السيطرة على لذائذه الشهوانية وعن دمج حياته في مركز تتفجر منه بحرية تفجرها من ينبوع مستقل . وها كه يلتقي ، بغتة ، حضوراً ينقله من الخارج الى الداخل ، يفتِّح فيه صداقة ما كان استطاع ان يبلغ اليها ، تشد كل كيانه بحمية حب جعلته يتخلص من اثقال ذاته ويشعر انه يحيا اخيراً في كائن ولاجل كائن : اقرب اليه من نفسه واقرب من ذاته الى ذاته ؛ كائن كان من قبل هناك بدون ان يشعر بوجوده . لأنه ما كان في استطاعته ان يتحقق

من هذا الوجود إلّا من وراء تفجر حريته ، ومن فتحه هذا الحوار الزوجي حيث يتخذ وجوده كله شكل هبة .

ترى ما هو هذا الحضور ؛ وما هو هذا الجمال البعيد في القدم والجديد ابداً ؟ لقد عرفه اغوسطينوس انه « داخل » داخل محض ، عرفه حقيقة لا تفرض ذاتها عليه فقط بل تعمل منه ، على العكس من ذلك ، داخلًا مقدساً لا يمس ؛ ولا يلمسه الا ويجعله حراً من « اناه » ـ الاداة ؛ ويتعذر عليه ـ هو اغوسطينوس ان يعترف به الا بقدر بقائه حراً من ذاته ؛ وبكلمة فانه يصبح ذاته ، يصبح هو ما هو عبر هذا الجمال . لذلك اسماه : « حياة الحياة » ، ويقول له : « حيّة تغدو حياتي عندما تمتلىء منك » (١٠ : ٢٨ من اعترافاته) .

ان ما هو جدير بالاعتبار في هذا النص ان لقاء اغوسطينوس مع ذاته ولقاءه مع الجمال البعيد في القدم والجديد أبداً ـ وهي الطريقة التي يتجلى له الله بها ـ هو نفس الحدث والوحيد . حدث هو اختبار جوهري لانه يحوّله اخيراً الى ذاته وفي ذاتيته ؛ واذن فهو ليس ثمرة درس نظري ، ثمرة تفكير في اصل

العالم؛ اختبار ليس شرحاً لاي شيء كان. فهو، مرة اخرى، حدث غيّر القديس اغوسطينوس تغييراً كاملاً تغييراً لا يقل عن ولادته لذاته.

لا نستطيع ان نقول انه يؤمن بالله الا اذا ارجعنا الى كلمة الايمان معناها الاصيل اي اعطى قلبه لمن يؤمن به لانه يرى ذاته، عبر الله، كصلة يمر بها كيانه، مجرداً تجرداً مطلقاً من ذاته في المحبة التي يكتمل فيها.

اننا هنا نمسك بالحل الوحيد الممكن للمعضلة البشرية. فكيف نصبح قيمة حقيقية، ينبوعاً لا يستغنى عنه، خيراً عامّاً شاملاً، عظمةً لا تمسّ؟ ليس عندنا إلّا جواب: في إفراغنا انفسنا من انفسنا، إلّا في تعرّينا من كل ما هو لهذا «الأنا» الذي سبق ففرض علينا والذي يشد الخناق علينا ليميتنا فطساً. لنجعل من ذاتنا مجالاً خليقاً بتقبل الوجود اللامتناهي المحبوب فينا كالحب ذاته الذي يتعذر عليه ان يُعرف إلّا بحبنا.

هذه هي العظمة الوحيدة التي لا تواضع احداً والتي هي الخير العام الشامل: ان نصبح مجالاً لا حدّ له يشعر كل منا انه مقبول فيه ومكرّماً، ان

نصبح وجوداً شفّافاً لإله يمكّن كل انسان ان يعترف به كأنه شيء فيه لا خارجاً عنه .

ان لنا جميعاً ، في الواقع ، مركزاً مشتركاً ؛ فنحن كلنا واحد في نقطة وحيدة هي قطب « الأنا » لكل واحد منا « الأنا » ـ التضحية ، « الأنا » السكيب واليه تتجه حياتنا ، حياة كل واحد منا .

فولادتنا الحقيقية تبدأ في هذا اللقاء المحرر ، لقائنا الله الساكن فينا ، هذا الإله الذي لا يبدو سيّداً كملك مسكنه وبلاطه وراء النجوم ، في سماء خيالية لان السماء هي ، كما يقول البابا غريغوريوس ، « نفس البارّ » . ان هذا الإله لا يسود علينا ، لا يضيّق حدودنا ، لا يتهدّدنا لانه هو « الداخل » لان ليس له خارج لانه هو « داخلٌ » محض ؛ انه يستغني عن ان يعمل منا « داخلاً » صداقة حرة لا يمكن مسها ؛ يخلقها الحب ولا تتحرك إلّا بالحب .

وبما ان ليس لدينا وسيلة لنتعاطى معه إلّا الحب نتعلم من هذا بالذات انه محبة وليس إلّا محبة اي هبة الذات ؛ تجرد لامتناهي ، فقر كما فهمه ، بطريقة تثير اعجابنا ، القديس فرنسيس بتكريسه حياته للفقر .

فعظمة الله هي عظمة محبة ؛ فليس هو قدرة

قادرة لسحق كل شيء انما هو سخاء لا يستطيع إلّا ان يعطي ذاته.

نحن نتوق الى العظمة ونريد ان تكون هباتنا ضرورة لا يُستغنى عنها وان تحفر تلماً لا يمحى؛ ولكننا كنا نسوّل لانفسنا ان نخترع لنا عظمة كذوبة في محاولة السيادة على الآخرين والى جرّهم ليدوروا حولنا لنجعل منهم عبيداً.

واذا بنا يظهر لنا، في حوار زواجي هو الوسيلة الوحيدة التي تمكننا من لقياه، كقدرة لا متناهية على التواري والاحتجاب وكمجال لا حد له تتنفس فيه حريتنا، كنوع من فراغ خلّاق يتجلى فيه الفقر، اولى طوباويات الانجيل، كاصل لعالم يتقدمنا ويتحقق على قياس ما نرضى به ونعرفه على قدر ما نجعل من ذاتنا هبة او تقدمة، تجاوباً مع الهبة التي هي الله. هو هذا الاله ـ المجرد من ذاته في الثالوث الذي هو تجرد حب ابدي هو الاله الذي احيا منه وفيه عندما احيا. انه واحد مع الله الذي اكتشفه اغوسطينوس ساعة هدايته مع الله، الذي كشفه يسوع للسامرية ينبوعاً تتفجر منه حياة ابدية في عمق اعماق قلبها؛ هو الله ذاته الذي انحنى على

اقدام الرسل يغسلها ليقودهم الى السماء الباطنية في ذواتهم.

ان ماركس ونيتشه وسارتر لقد رأوا في الله انكاراً للانسان فلم يقووا الا على ان ينكروه — لانه كان إلهاً مسخ اله — ليخلصوا عظمة الانسان. ولكنهم لم يعرفوا اين يضعون هذه العظمة. فلا يمكن ان تقوم فقط في مراكز خارجة عنا، مراكز نحققها معاً؛ لا يمكن ايضاً ان تنبجس من الانسان — الاداة المشترك في الذنب مع ذاته والتي هي نحن بقوة ولادتنا اللحمية. بل يستحيل عليها ان تتحقق الا في قيمة ذاتية باطنية، متعلقة بحضورها ولا يمكن فصلها عنها، قيمة يستطيع كل واحد منا، في الوقت عينه، ان يعترف بها قيمة خاصة به؛ مكتشفاً اياها في ذاته لدى يلتقيها فينا.

فهذه الشمس المحتجبة فينا والتي يعود الى كل منا ان ينشر نورها بتحرره من جميع الحدود ومن جميع العبوديات كيف يمكنها ان تعارض عظمتنا لانها هي وحدها تستطيع ان تنبع من كل واحد منا خيراً عاماً شاملاً؛ لانها هي وحدها تعطي معنى لحريتنا كما تعطيها لقدرة على خلقنا بعطائنا ذاتنا.

ليس من يفكر بالتنكر لهذا الاله اذا كان فينا مجال نور وحب لا حدود له ، واذا لم يكنه فنكون نحن من ننكره ، وقولنا اننا مؤمنون به لا يؤدي إلا الى ابعاد الآخرين عنه . فالطريقة الوحيدة لشهادتنا له هي ان يكون الانسان انساناً حقاً لان انسانيتنا هي الطريق الوحيدة بالذات التي توصل الناس اليه متى اردنا حقاً ان نخرج من ذاتنا الوهمية ولنصير حقاً وحقيقة القيمة التي نتوق اليها ونطمع بها . فهي في صميم هذه المغامرة التي تقوم على ان يصير الانسان انساناً . ولذا حياتنا المجردة من ذاتنا هي الانجيل الوحيد الذي يغري ويقنع معاصرينا الذين يستطيعون ان يستشفوا منها وجوده اللامتناهي .

حفلة رسامة المطران يوستينوس نجمه ق.ب

اول اكسرخوس رسولي على الملكيين في الولايات المتحدة

في العاشر من كانون الثاني ١٩٦٦ اصدر قداسة الحبر الروماني البابا بولس السادس مرسوماً انشأ به اكسرخوسية الولايات المتحدة للروم الملكيين الكاثوليك وعين لهذا المنصب سيادة الارشمندريت يوستينوس نجمه قب. واعلن هذا القرار رسمياً في التاسع من آذار ١٩٦٦.

تنشأ الاكسرخوسية في مقاطعة كنسية لم تستكمل بعد وضعها القانوني لتصبح ما نسميه ابرشية يسوسها اسقف مركزي. وقد عرف الشرق قديماً الاكسرخوسية لاسيما في المقاطعات الواقعة خارج الامبراطورية الرومانية المسيحية والتي كانت منتمية ارسالياً وقانونياً لبطريركية من البطريركيات الشرقية. بما ان الولايات المتحدة الاميريكية خارجة عن المناطق الشرقية التي مارست فيها البطريركيات الشرقية ولايتها على مدى التاريخ فكان لا بدّ ان تنشأ هذه الاكسرخوسية باسم الكرسي الرسولي وتحت رعايته. فيقابلها والحالة هذه في الشرع اللاتيني ما نسميه النيابة الرسولية « Vicariat apostolique » الاكسرخوس كالنائب الرسولي رئيس كنسي محلي برتبة اسقف، يسوس رعيته باسم الكرسي الرسولي. والاكسرخوسية كالنيابة الرسولية مرحلة موقتة تتحول منها الى ابرشية مركزية يدبرها مطران بسلطانه الخاص.

ولد المطران يوستينوس نجمة في حلب سنة ١٨٩٨. ودرس في صغره في معهد الفرنسيسكان واليسوعيين. وسنة ١٩١٢ ذهب الى دير الشير حيث ابتدأ وترهب. وارسل سنة ١٩٢٠ الى معهد القديس اثناسيوس في رومة لدرس الفلسفة واللاهوت. فاستحصل على شهادة الملفنة في هذين الفرعين. سيم كاهنا في ٢٥ كانون الاول ١٩٢٦ ثم عاد الى لبنان، فعين مديراً لاكليريكية الرهبانية الباسلية الحلبية واستاذاً في اللاهوت النظري. وسنة ١٩٣٢ انتقل الى حلب حيث شغل وظيفة رئيس معهد مار جرجس في

الشرعسوس . وفي سنة ١٩٣٤ تعين مدبراً رابعاً في رهبانيته . وفي سنة ١٩٣٦ عين نائباً بطريركياً في المنصورة في مصر حيث قضى زهاء اربع سنوات وبعد ذلك انيطت اليه ادارة معهد القديس نيقولاوس بحلب . وسنة ١٩٤٢ تسلم نيابة اسقفية حمص فرقي الى درجة ارشمندريت . وسنة ١٩٤٤ انتخب رئيساً لدير الشير حيث لم يقض سوى بضعة اشهر لأنه ارسل في اواخر السنة المذكورة الى الولايات المتحدة الاميركية ليهتم برعية « سانترال فولس » . فامضى في خدمة هذه الرعية زهاء ١٩ سنة فكان طيلة هذه المدة مثالاً لرعيته في غيرته وتقواه واندفاعه في عمل الخير وادارته الرشيدة . وعندما وافق الكرسي الرسولي على انشاء اكسرخوسية الولايات المتحدة الاميركية للروم الكاثوليك توجهت الانظار اليه . فعينه في ١٠ كانون الثاني ليشغل هذا المركز الرفيع والدقيق ورفعه الى درجة اسقف .

تحدد ان يكون ميعاد الرسامة يوم العنصرة الواقع في ٢٩ ايار ١٩٦٦ . كل شيء مرتب ومجهز لتكون الرسامة موفقة وناجحة على اكمل وجه بكنيسة الصليب المقدس الكاتدرائية في بوسطن التي تتسع لاكثر من الفي شخص غاصة بالوفود الشرقية التي حضرت من كل انحاء اميركا لحضور هذه الحفلة النادرة المثيل . وكردينال بوسطن ريشارد كوشين المتردي بالحلل الحبرية البيزنطية الكاملة الذي يترأس هذه الحفلة ، ووفد الاساقفة البطريركي الذي حضر من الشرق ليرسم المطران الجديد وهو مؤلف من السادة الاساقفة كيريوس اثناسيوس توتنجي متروبوليت حلب وكيريوس جاورجيوس حكيم رئيس اساقفة الجليل ، وكيريوس بولس اشقر مطران اللاذقية . وكل الكهنة الملكيين الذين يخدمون خورنيات الولايات ويربو عددهم على ٢٥ ، ووفود من الاكليروس الماروني واللاتيني والاوكراني والارثوذكسي وعلى رأسهم المطارنة ورؤساء الطوائف .

في الساعة العاشرة صباحاً تحرك الموكب برهبة وجلال عابراً الشارع العام الذي يؤدي الى باب الكاتدرائية الكبير وكان المشهد جميلاً جداً ولا سيما منظر الكاردينال كوشين وهو يختتم الموكب مرتدياً المندياس وفي يده العكاز البيزنطية وعلى رأسه التاج البيزنطي . وقد طال مسير الموكب

سيادة المطران يوستينوس نجمه ق. ب

اكثر من نصف ساعة الى ان اعتلى الكردينال العرش المنصوب له على يمين الهيكل . فبارك الشعب بالتريكيريون والذيكيريون وبعد ذلك جرى حفلة تلبيسة الكردينال على حسب الطقس البيزنطي . فكان منظره جميلاً ورهيباً ومثيراً للاعجاب لما عرف عن محبته للشرقيين وغيرته على طقوسهم وتقاليدهم ورفع شأن كنيستهم .

ثم ابتدأ القداس الاحتفالي يترأسه صاحب السيادة كيريوس اثناسيوس توتنجي ومن حوله المطرانان مساعداه في وضع يدهم للرسامة وحول الهيكل اربعة من الارشمندريتية واربعة من الكهنة بلباسهم الكهنوتية . وكان يقود جوقة الترتيل قدس الاب كيريلس حداد المخلصي المعروف بتضلعه بالموسيقى وبمهارته في ادارة خورص الترتيل . وكان افراد الجوقة الذين يربو عددهم على الثلاثين مرتدين الاوشحة الحمراء الفضفاضة . واغلبهم لا يعرف العربية . الاّ انهم كانون يرتلون بلغة اجدادهم او باليونانية واحيانا بالانكليزية . فكان هذا المشهد مؤثراً جداً .

وقبل انشودة التريصاجيون قدم الرئيس العام للرهبانية الباسيلية الحلبية المرتسم الجديد للشعب ودار به حول الكنيسة الى ان اوصله الى الهيكل ، وعلى الاثر جرت حفلة الرسامة في جو مشبع بالرهبة والتقوى والخشوع وبعد الصلوات المعتادة الموضوعة للرسامة البس المرتسم الحلة الاسقفية الكاملة . وعلى الاثر ترأس القداس وأعطى البركة الاسقفية الاولى للشعب .

وبعد قراءة الانجيل القى الكردينال خطاباً حماسياً حول الطقوس الشرقية ودام خطابه نصف ساعة . وكان الكردينال مريضا وقد اوصاه الاطباء ان يلزم الفراش وان يذهب الى المستشفى . الاّ انه اصر على ترأس هذه الحفلة ليعبر عن فرحه بالاكسرخوس الجديد وعن محبته للطقوس الشرقية الجميلة .

وفي آخر القداس اعطي المرتسم الجديد العكاز الرعائي وعلى الاثر خرج اعضاء الاكليرس والمحتفلون من الكنيسة بابهة وعظمة وجلال ومروا بالشارع العام الى ان وصلوا الى حيث تبودلت التهاني .

وقرب الساعة الثانية بعد الظهر اجتمعت الوفود الشرقية حول مأدبة كبيرة ضمت اكثر من ١٣٠٠ شخص في اكبر نزل من بوسطن وهو نزل Sheraton اوتيل . وهناك قام الخطباء يعبرون عن فرحهم وابتهاجهم بهذا الحدث الفريد . فتكلم حضرة الاب يوحنا جدع المخلصي الذي كان لولب النظام الموفق وتبعه حضرة الاب الين معلوف الذي ابدع في كلامه وفي تقديمه للشخصيات الموجودة على المائدة . وبعد ذلك تكلم بأسم العلمانيين الاميركان حضرة المحامي جيم سالم . وخطب ايضاً قدس الارشمندريت بطرس راعي وعبر عن بهجة الرهبانية وافتخارها بابنها البار المرتسم . وتبعه في الكلام سيادة مطران بروفيدانس بالنيابة عن الكردينال كوشين فوصف فرحه العميق لأن احد خوارنته ارتقى الى الدرجة الاسقفية فاصبح اخاً ومؤازراً .

وتكلم آخر الكل سيادة المطران الجديد فعبر عن استعداده للقيام بالعبء الثقيل الملقى على عاتقه متكلاً على نعمة الله وعلى مؤازرة مساعديه وكهنته الموزعين في خدمة الرعايا الملكية عبر الولايات المتحدة الاميركية ووعد ان يكون كلًا للكل غير متميز عما كان قبلًا اي الاب يوستينس نجمه .

وعلى هذا الحد انتهى هذا النهار التاريخي . فارفضت الجموع وهي تلهج بجمال الحفلات التي اقيمت للاسقف الجديد وتشيد بالصفات الابوية والكهنوتية التي عرف بها طيلة حياته .

شعاع

شعر : جورج داود

قلت للشمس اذا لملمت ظلاً
واستبدّ الليل بالكون وأبلى

واذا شئتِ غروباً ما الذي
ينقذ الدنيا اذا النور اضمحلاّ

قالتِ الشمس وفي غرّتها
مائج النور على الافق تجلّى

ان للعقل شعاعاً نيّراً
يغمر الدنيا جمالاً كيف هلاّ

وأهازيج الصبا

شعر : منيف موسى

وتميد الارض بنا ..
ولا نرتوي .
فنحن عذارى وفتيان ،
بعمر البيلسان ..
مـــا كنا لنقيم
من الحياة حياة
والابـــاة .
وجيل فتى اسمر
بعمر الجنى ..
اسكر الدنيا .. نشيداً
وغنـــاء
كلما اللحن سرى ..
والنشاز ..
صم افكار القلم ..
والنغم

تاه من وتر طروب
تاركاً دنيا لعوب
تترنح بالنغم .
والسكارى ..
في مواخير المدينة
تتأبى الصخب ..
والمجاذيف حيارى
تضرب البحر الطويل
والشراع
راح والريح
مع الليل العميق ..
ومتاهات الطريق
تتلقى الزمن .
واهازيج الصبا ..
دمعة حرى
على قبر صديق .

الرسالة المخلصية

مجلة شهرية تصدر عن دير المخلص
سنتها عشرة اشهر

الادارة الادبية: الاب سمعان نصر ب م
الادارة المالية: الاب جورج كويتر ب م

دير المخلص — قرب صيدا تلفون ٧٢٠٤٤٠
او بيروت — الوكالة المخلصية — شارع المخلصية
تلفون ٢٣٣٢٢٨

الاشتراك

- ٦ ل. ل. في لبنان
- ٨ ل. س. في سورية
- جنيه او دينار في بقية البلاد العربية
- ٥ دولارات في اوروبا واميركا وافريقيا
- ٢٥ ل. ل. للدوائر والشركات

الاعلان

تقبل الاعلانات على صفحات المجلة
بعد سابق اتفاق مع الادارة

ترسل الرسالة المخلصية الى البلدان التالية :

الارجنتين المانيا انكلترا ايطاليا البرازيل
تركيا السنغال السودان سوريا سويسرا
العراق فرنسا فنزولا كندا لبنان
ليبيريا مراكش المكسيك مصر
المملكة الاردنية الهاشمية الولايات المتحدة

وكلاء الرسالة

بيروت : السيد اسكندر حداد
صيدا : السيد طانوس موسى
صور : السيد كامل سعاده
مشغرة والجوار : السيد جورج طرابلسي
زحلة وابلح والجوار : الاب نقولا كناكري ب م
دمشق والجوار : الاب جورج غبريل ب م
حلب : الخوري بطرس جحا
القاهرة : الاب اغناطيوس رعد
الاسكندرية : الاب يوحنا سليمان ب م
عمان : السيد يوسف اسعد سمعان
بقية الاردن : الاب ميشال حبيب ب م
الخرطوم : الارشمندريت كيرلس حجار
بغداد : الاستاذ يوسف يعقوب مسكوني
اميركا الشمالية والجنوبية :

Mr. John Courey
20201 Redfern Ave.
Detroit 19. Mich. U.S.A
Rev. Simon Hage B.S.
Saint Ann's Church
7 Connecticut Ave.
New — London, Conn. U.S.A.

المحتويات

الموضوع	المؤلف	صفحة
لبنان بين ديموقراطية الحاكم والمواطن	الاب بشاره صارجي ب.م	٣٥٣
شريعة الحب وشريعة الزواج	المطران ميخائيل ضوميط	٣٥٧
طعم الراحة	نصرت توفيق خريش	٣٧٢
لماذا أومن بالحرية	الاخت كايمنص حلو	٣٧٨
الكنيسة سر المسيح	المطران غرغوار حداد	٣٠٩
لبنان بين الليبرالية والاشتراكية	الدكتور حسن صعب	٤٤٥
دور العلماني في الكنيسة	الاب ميشال حكيم ب.م	٤٥٥
سوفوكل في قلعة صيدا	سمعان نصر	٤٨٩
لماذا أومن بالله	الاب موريس زندل	٤٩٢
حفلة رسامة المطران يوستينوس نجمه ق.ب		٥١٩
شعر : شعاع	جورج داود	٥٢٤
واهازيج الصبا	منيف موسى	٥٢٥

Chateau Musar

موزار نبيذ فاخر

جادة الافرنسيين ، ١٢٨

الهاتف ٢٣٢١١١ — بيروت

حلو العريسي

احمد خليل العريسي

يقدم أطيب انواع البقلاوة

والمربيات والشكولاته

تلفون

بيروت ٣٢١٢٤

المطبعة المخلصية

دير المخلص . صيدا . لبنان

2 PRODUITS DE QUALITE!
"Laziza"
LA 1ERE AU LIBAN
MISSION
OF CALIFORNIA
Un rafraîchissement délicieux
Laziza
BIERE de LUXE
MISSION
OF CALIFORNIA
Gde BRASSERIE DU LEVANT-G.GELLAD S.A.L.
TEL: 220414 - 15 BEYROUTH

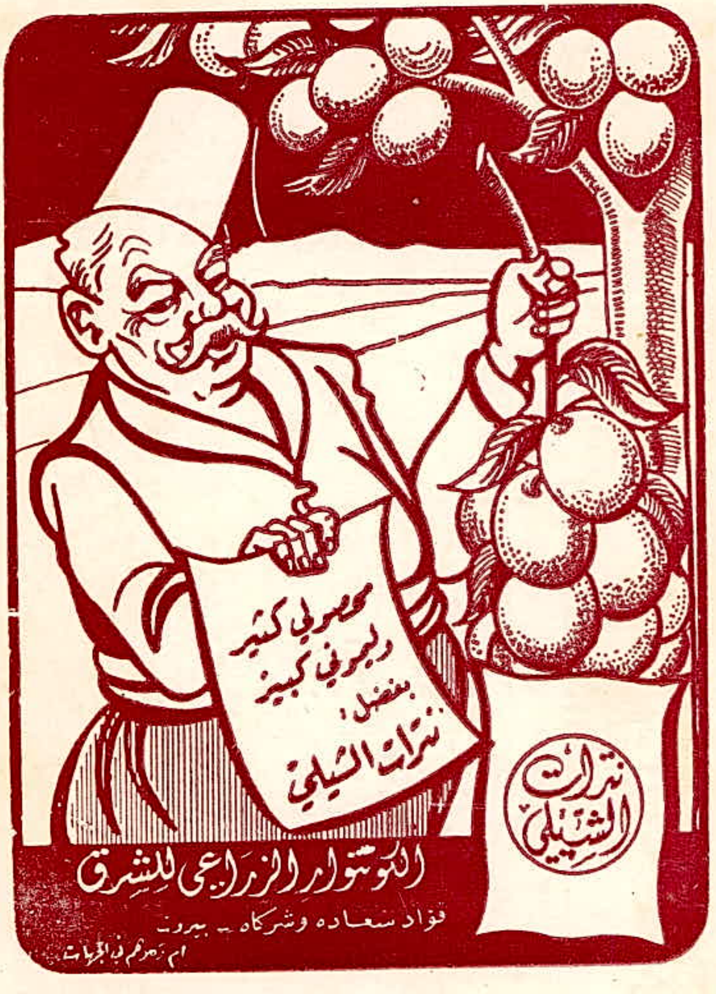
محصولي كثير
وربحي كبير
بفضل :
نترات الشيلي
نترات الشيلي
الكونتوار الزراعي للشرق
فؤاد سعاده وشركاه ـ بيروت